مصرع كليوباترا

تأليف

المرحوم أحمد شوقى بك

مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦

إهـــداء

إلى صاحب السمو الملكى الأمير "فاروق"
ولىّ عهد المملكة المصرية (*)

فاروقُ يا أزكى نبات الوادى
ولمحةَ الآباء والأجداد
ويامناط العهد من «فؤاد»
الى اليد المأمولة الأيادى
أرفع ما قد وَسِع اجتهادى
وَردَ الرُّبا وزَنْبقَ الوِهاد
حوادث قديمة الميلاد
فِضْنَ عن الملوك والقُوّاد
وصِرنَ وحىَ شاعر وشادى
وفتنةَ اليَراع والمِداد
يَعطفَن كلَّ طيّب الفؤاد
تَهُزُّه بجيعة الأمجاد

(*) أهديت إلى جلالته قبل ارتقاء جلالته عرش المملكة المصرية .

وروعة المَقَادر العوادى
وما خَلَوْن من شعاع هادى
يُبَيِّنُ الغَىَّ من الرشاد
ومن قصيدٍ مِلْء كل نادى
عَفِّ البيوت نَزِهِ الأوتاد
تُسيغه مسامِعُ الزُّهَّاد
وقَصصٍ مُستَحدَث فى الضادِ
يُؤَلِّفُ التمثيل بالإنشاد
فى وطنٍ على الفنون غادى
مَسرَحُه كان بلا عماد
والدُّك المُعانُ بالسَّداد
أقام رُكنَيْه فكان البادىْ
فإن تقبلتَ وذا اعتقادى
جَزَيتَ إخلاصىَ واحتشادى
لجيلك الناهض بالبلاد

شوقى

تمهيـــد

١ ـ زمن الرواية : الأيام الأخيرة فى حياة كليوباترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة « أكتيوم » البحرية وانتحار كليوباترا .

٢ ـ مكانها : فى الاسكندرية وأرباضها .

٣ ـ أشخاصـــها :

(ا) الأشخاص التاريخية :

كليوباترا .

مارك أنطونيوس .

أكتافيوس قيصر .

قيصرون : ابن كليوباترا من يوليوس قيصر .

(ب) الأشخاص الموضوعة :

أنوبيس : الكاهن الأكبر .

زينـون : أمين مكتبة قصر كليوباترا .

حابى ...

ديون ... مساعدو زينون .

ليسياس

هيـــلانة : وصيفة كليو باترا وبينها وبين حابى غرام

شرميون : وصيفة أخرى .

أوروس : رومانى فى معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيه .

أولمبوس : طبيب رومانى فى بلاط كليو باترا .

أنشـــو : مضحك الملكة .

غانمـــين : ساقيهـا .

حـــبرا : عرافهـا .

أيـاس : شـاديهـا .

أحيـــل : قائد الأسطول المصرى وربان أنطونياد سفينة كليو باترا .

بـــولا : شاعر .

أغا القصر

(ج) النكرات المسرحيـة : جنود وقـوّاد مصريون ورومانيون ، راقصات ، عزاف .

الفصــــل الأوّل

المنظــر الأوّل

«فى مكتبة قصر كليوباترا — حابى وديون وايسياس جلوس الى»
«عملهم . يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد»

يومُنــا فى أكْتِيُــوما ذكْرُه فى الأرض سارْ
إسألوا أسطولَ روما هل أذقنــاه الدّمار!

* * *

أحرز الأسطولُ نصرا هزّ أعطافَ الدّيار
شرفًا أسطولَ مصرا حُزْتَ غاياتِ الفَخار

* * *

صارتِ الإسكندريهْ هى فى البحر المَنــار
ولهــا تاج البريــهْ ولهــا عرش البحار

* * *

حابى : إسمع الشعبَ (دُيونُ) كيف يُوحون إليه
مــلأ الجــوّ هُتــافًا بحيــاتىْ قاتليْــه
أثّر البهتانُ فيــه وآنطلى الزور عليــه
يا له من بَبّغــاء عقــله فى أذنيــه

ديون :

حابى، سمعتُ كما سمعتَ وراعنى أن الرّميّة تحتــفى بالرامى

هتفوا بمن شرب الطِّلا فى تاجهم ... وأصار عرشهمُ فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ... ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى :

أتذكر يا ديون إذ انطلقنا ... إلى الميناء نلتمسُ الهواء
وكان البحرُ كالمَيْت المُسَجّى ... وكان الليلُ للميت الرداء

ديون :

نعم وهناك آنسْنا سحابا ... وراء الليل جللت السماء
فقلتَ أنظر ديونُ تَرَ الجوارى ... يطأنَ الماء همسًا والفضاء
وأقبلت البوارج بعد حين ... سوائبَ لا دليلَ ولا حُداء
رَجَعن رجوعَ قُرصان أصابوا ... من الغزو الهزيمةَ والبلاء
فلم نسمعْ لملّاح هتافًا ... يُبشِّرُ بالقدوم ولا نداء
ولم نَرَ فوق سارية سراجا ... ولا من ثقْب نافذة ضياء

حابى : فماذا قلت ؟

ديون :

قلت ديونُ إنى ... أرى الأسطولَ بالوَيْلات جاء
دخولُ الظافرين يكونُ صبحًا ... ولا تُزْجَى مواكبُهم مَساء
فلما أصبح الصبحُ انتبهنا ... نَرَى الأسطولَ أزْينَ ما تراءى
تبرّجت البوارجُ بعد عُطْل ... وهَزّتْ فى ذوائبها اللواء

ورَدَّدَ فى المدينـة أن روما عفا أسطولُها ومضى هَبـاء

فضجّ الناسُ بالبُشرى وكدّوا حنـاجرَهم هُتـافاً أو دُعاء

هداك اللهُ من شَعب برىء يُصرِّفه المُضلِّلُ كيف شاء

ليسياس [هامسا لحابى] : [تدخل هيلانة]

حابى : صـه قد ظهرتْ هيـلانهْ وأقبلت بالطلعـة الفتّـانهْ

تَنَفَّحُ كالزَّنبقة الغيْسانهْ

حابى : ليسياسُ، أنهاك عن المَجانهْ هيلانةُ فى القصر قَهرْمانهْ

لهـا وقارٌ ولهـا مكانهْ

هيلانة : سـلامٌ لك يـا حابى

سـلامٌ لك هيـلانهْ

هيلانة : أُمِرْتُ أن أقول للأمين ستحضُر المَلْكةُ بعد حينِ

فبلِّغِ الأَمرَ الى زينون

حابى : سـيدتى سـأفعـلُ أمرُكما ممتثَـلُ

هيلانة : تَقـرِنَنى بِربَّـتى ! ذلك ما لا أقبَـل

حابى : هيـلان، أنتِ مَلْكتى وأنتِ وحـدَكِ المَـلَكْ

هيلانة : بـل كيلبـترا وحـدَها لم يَحْـوِ شمسـيْن الفَـلَك

إن أنت لـم تؤْمِـنْ بهـا فلسْتَ لى ولسـتُ لك

[تخرج هيلانة و يدخل زينون من باب آخر فى هيئة تفكير واضطراب]

حابى : ذاتُ الجلالة سيدى قد آذنَتْنا بالزيارهْ

زينون : هذه حجرتُها لا عدِمَتْ طِيبَ رِيّاها ولاضَوء حُلاها

كلَّ يوم تتجلى ساعةً هاهنا كالشمس فى عز ضحاها

تدخُلُ الدارَ فتنسى مُلكها بلقاء الكُتْب أو تنسى هواها

[محدّثا نفسه فى ركن قصى من أركان المكتبة] :

أما الشبابُ فقد بعُد ذهب الشباب فلم يَعُدْ

ويحى أمِن بعد السنين وقد مرَرْن بلا عدد

أو بعد طولِ تجاربى ومكانِ علمى فى البلد

تَجْنى الحسانُ علىّ ما لم تجْنِ قبلُ على أحد؟

ديون [هامسا إلى رميليه] :

حاب ، ليسياس ، أُقسِمُ أن زينونَ مغرَمٌ

فضح الشيخَ حبُّه والهوى ليس يُكتَم

ليسياس : بِمَنِ الشيخُ مولَعٌ ليت شعرى متيّم؟

ديون : وبمن جُنَّ يا تُرى ؟

حابى [ضاحكا] : كلُّ خاف سيُعلَم

زينون [مستمرا فى حديث نفسه] :

مالى جننتُ فصرتُ أ تَّـ ـهم الشبابَ وأضطهدْ
لم ألقَ رأسًا فاحمًا إلّا حملتُ له الحسد
ووجدتُ لاعجَ غيرةٍ بين الجوانح يتّقد
فكأن ظلمةَ شَعره فى مُقلتىّ هى الرّمد
وكأنما سرقت ذوا ئبُهُ شبابى المفتقَد
ولو آن لى ولدًا فبا ت لما بكيتُ على الولد
حذَرًا وخوفًا أن يكو نَ بها تعلّق أو وجَد
شكٌّ يعذّب مهجتى إن المشكّكَ فى كَبَد

[يلتفت إلى حابى و يطيل إليه النظر ثم يناديه] :

حابى، بنى

[يأتى اليه حابى]

قل ولا تُخْفِ علىّ هل تُحبْ؟

حابى : أُحبُّ ! من قال ؟

زينون : سمعتُ

حابى : من روى لك الكذب؟

زينون : بُنىّ، ليسَ بالفتى إذا أحبَّ من عَجب
مَن لم يُحبَّ لم يُؤدِّ للشباب ما وجب

حابى [متهكما] :

لكن أأدعى الهوى وليس لى منهُ سببْ؟

زينون : حابى ، بُنىّ لا تَرُعْ مِنَ السؤال بل أَجِب

لولا الهوى لم تكُ فى ظل الشباب تكتئب

ما بال بِشْرِك امّحَى ولونك الغضّ شُحب؟

وللدموع من مآ قيك تكادُ تنسكب؟

حابى [ساخرا] :

افقْ زينونُ واصحُ من الغوانى أبعد الشيب تخدعُك النساء؟

زينون [غاضبا] :

أتعلم يا غلامُ علىّ عشقًا ؟

حابى : دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون : ومن أنباك ؟

حابى : أنت !

زينون : وكيف ؟

حابى : تَهْذِى فتفضحك الوساوسُ والهُذَاء

كمحموم يبوح وليس يَدرى تكشّفَ عن سرائره الغطاء

أبعد العطف والإشفاق يشقى — بصحبتك الشبابُ الأبرياء؟
فكلّ فتى رأيتَ زعمت صبّاً — يُخامرُه من الرُّقطاء داء؟
وما كعَمَى الشيوخ إذا أحبّوا — وليس وراء غَيْرتهم بلاء

زينون [لنفسه] :

إلهي قد فُضِحتُ وضلَّ شيبي — وضاعت حكمتي وخبا الذكاء

[لحابي] :

صدقتَ بُنيَّ بي داءٌ دخيلٌ — وليس إلى الدواء ليَ اهتداء
عليَّ تلوّتِ الأفعى، فهل لي — من الأفعى ونكزتها نجاء؟
أرى ولهًا وأحسبُه جنونًا — كسانيه على الكِبَرِ القضاء

حابي : وتُعطَى حين تلقاها ابتسامًا — وأنطنيوسُ يُعطَى ما يشاء
صباحُهما مُغازلةٌ وصيدٌ — وللأقداح والقُبَل المساء
أترضى ان يكون سريرُ مصر — قوائمُه الدعارةُ والبِغاء؟
أتهدِمُ أمةً لتشيدَ فردًا — على أنقاضها ؟ بئس البِناء!
أبي، شيخي، اجترأتُ عليكَ فاصفحْ
فلم أكُ أجترى لولا الوفاء



إلهي قد فضحت وضل شيبي وضاعت حكمتي وخبا الذكاء

(صفحة ١٣)

لقد آن التكاشفُ والتَّواصي بما توحِي الكرامةُ والإباء
تعالَ إلى جماعتنا ، فإنَّا جنود الحق يجمعنا لواء
شبابٌ نحن يعوِزُنا شيُوخ بهم في المدْلهِمَّةِ يُستضاء
زينون : كفى ، إنى نفضتُ يدىّ منها ومُزِّقَ عن بصيرتيَ الغِشاء
حابى : أبى زينونُ قد بُحتُ من السر بمكنونى
وما غيرُك زينونُ على السر بمأمون

[يشير إلى ديون وليسياس] :

أخى ، هذا أثينيٌّ وخِلِّي ذاك مَقْدونى
كِلا الخِلَّين للحق كما أدعوه يدعونى
كِلا الخِلَّيْن ذو جَدٍّ بأرض النيل مدفون
فليْسا في هوى مصرٍ وفي طاعتها دونى
فدينا الوطنَ الغالى بالجنس وبالدين
ولم نصبِر على حكمٍ لروميَّةَ ملعون
ولسنا حزبَ أكتافٍ ولسنا حزب أَنطُون
ولا نَخْضَعُ للبأس ولا نُخْدع باللين
ولم يَبقَ على الودِّ لروما غيرُ زينون

زينون : معاذ الله ، عُدُّونى من العصبة عُدُّونى
كساكِ اللهُ يا روما لباسَ الذلّ والهُون

حابى : أبى ، أنت الطبيبُ وكلُّ داء له فى صَيْدليّتك الدواء
فَهِىِّ لها ابنَ ساعته وعَجِّلْ يُعَجَّلْ فى السماء لك الجَزاء
لعل سمومَك الزُّعْفَ المواضى من الأفعى وفتنتها شفاء

[يدخل جندى من حرس الملكة معلنا قدومها]

الحارس : الملكة !

زينون [كأنما يفيق من حلم] :

الملكهْ ! لَا بَرِحَتْ مُمَلَّكهْ !
ودام مجدُ المملكهْ !

[تدخل كليوباترا ومن ورائها ابنها قيصرون بين وصيفتيها شرميون وهيلانة ومن ورائهن أنشو مضحك الملكة وأغا القصر]

الملكة : تحيّتى لأُمناء المكتبه وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبه

زينون : سلام السّموات فى مجدها على ربّة التاج ذات الجلالْ
تمنيتُ رأسين لا واحداً إذا مَسّت الأرضَ هامُ الرجالْ
أُطَأطِئُ رأسًا لمجد النبوغ وأخْفِضُ رأسًا لمجد الجمال

حابى ، ديون ، لسياس [يتلفت بعضهم إلى بعض أسفا] :

أنشو [للوصيفتين وقيصرون] :

أما يُغنيهِ عن رأسيـ ـنِ رأسٌ فيه وجهان؟
فحيناً هو مصرىٌّ وحيناً هو يُونانى
وفى مجلسِ يوليوسَ وأنطونيوس رُومانى
وإن لاقى أغا القصر فنوبىٌّ وسودانى

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة : كاهنَ المُلْكِ سلامٌ لا عَدِمنا بركاتِكْ
صلِّ من أجلى ولا تنـ ـس صِغارى فى صلاتك

أنوبيس : ربَّةَ النيلِ التَّحيا تُ الزَّكيَّاتُ لذاتك
حَرَسَتْ تاجَكِ إيزيـ ـسُ ومَدَّتْ فى حياتك

الملكة : هوَ ذا ابنى قيصرونُ يتلقَّى نفحاتِك

الكاهن [لنفسه] :

إيزيسُ كيف أُصَلى على ابن يوليوسَ قيصرْ؟
أبوه عالٍ ولكنْ فرعونُ أعلى وأكبر

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر السالف فى أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهنَ المُلْكِ ، سادتى ، هل سمعتمْ رنَّةَ الصوتِ فى جوانب قصرى ؟

أنوبيس : هم رعايا مليكتى
الملكة : ليت شعرى
ألخيرٍ تجمّعوا أم لشرّ؟

شرميون :

الجماهيرُ يا مليكةُ بالشّـ ـطِّ يموجون فى حُبورٍ وبِشْرِ
سرّهم ما لقيتِ فى أكتيوم من ظهورٍ على العدوّ ونصر
لا يقولون أو يُعيدون إلّا نبأ بات فى المدينة يسرى

الملكة :

يا لإِفك الرجال! ماذا أذاعوا كذبٌ ما رووا صُراحٌ لعمرى
أىّ نصر لقيتُ حتى أقاموا ألْسُنَ الناس فى مديحى وشكرى؟
ظَفَر فى فم الأمانىّ حلوٌ ليت منه لنا قُلامةَ ظُفْر
وغدًا يعلمُ الحقيقة قومى ليس شىءٌ على الشعوب بِسر

شرميون :

ربّةَ التاج ذلك الصُّنع صُنعى أنا وحدى وذلك المكرُ مكرى
كثرتْ أمس فى الإياب الأقاويـ ـلُ وظنَّ الظنونَ من ليس يدرى
فأذعتُ الذى أذعتُ عن النصـ ـر وأسمعتُ كلَّ كوخ وقصر
خفتُ فى خاطرى عليك الجماهيـ ـرَ وأشفقتُ من عِدًى لك كُثْر
فاغفرى جُرأتى، فيا رُبَّ ذنبٍ يتعب العذرُ فيه مهّدتُ عذرى

الملكة :

شرميونُ، اهدئى فما أنت إلا ... مَلَكٌ صِيغ من حنانٍ وبِرّ

أنتِ لى خادمٌ ولكن كأنا ... فى المُلِمّاتِ أهلُ قربى وصِهر

إنما الخادمُ الوفىُّ من الأهـ ... ـل وأدنى فى حال عسرٍ ويسر

اسمعى الآن كيف كان بلائى ... وانظرى كيف فى الشدائد صبرى

أيها السادةُ اسمعوا خبرَ الحر ... ب وأمرَ القتال فيها وأمرى

واقتحامى العُبابَ والبحرُ يطغى ... والجوارى به على الدمِ تجرى

بين أنطونيو وأكتافَ يومٌ ... عبقرىٌّ يسيرُ فى كل عصر

أخذتْ فيه كلُّ ذاتِ شِراعٍ ... أُهْبةَ الحرب واستعدّتْ لِشرّ

لا ترى فى المجال غيرَ سبوحٍ ... مُقبِلٍ مُدبرٍ مِكَرٍّ مِفَرّ

وترى الفُلكَ فى مُطاردة الفُلـ ... ـكِ كنسرٍ أراد شرّاً بنسر

وتخالُ الدُّخانَ فى جَنَبات الـ ... ـجوّ جُنحاً من ظلمة الليل يسرى

ودوىَّ الرياح فى كل لُجٍّ ... هزجَ الرعدِ أو صياحَ الهِزَبْر

وترى الماء، منه عودُ سرير ... لغريقٍ، ومنه أحناءُ قبر

يغسلُ الجُرحَ ثمّ من غسل الجر ... حِ ويأسو من الحياة ويُبرى

كنت فى مركبى وبين جنودى ... أزِنُ الحربَ والأمورَ بفكرى

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ... ـراً من القوم فى عداوة شطر

بَطَلاها تقاسَما الفُـلكَ والجيـ ـشَ وشَـبَّا الـوغى بِبحـر وبر
وإذا فـرّقَ الرُّعاةَ اختـلافٌ علّموا هاربَ الذئاب التَّجَرّى
فتـأملتُ حالـتىَّ مَلِيّـا وتدبرت أمرَ صَحوى وسكرى
وتبيّنتُ أنْ روما إذا زا لت عن البحرلم يَسُد فيه غيرى
كنت فى عاصفٍ، سلاتُ شراعى منـه فانسلّت البوارجُ إثْرِى
خلَصت من رَحى القتال ومِمّا يلحق السُّفْن من دمار وأسْر
فنسيتُ الهـوى ونُصرة أنطو نيوسَ حتى غدرتُه شـرَّ غدر
علمَ اللهُ قـد خذلتُ حبيبى وأبا صـبيتى وعَونى وذُخرى
والذى ضـيّع العروشَ وضحّى فى سبيلى بألف قُطْـر وقطـر
موقفٌ يُعجب العلا كنتُ فيه بنتَ مصر وكنتُ مَلكةَ مصر

[ملتفتة الى زينون] :

زينونُ، فصّلتُ الخبرْ عن القتال والسـفرْ
وقلتُ عن إيابى وخُطـة انسـحابى
ما ليس يعـلمُ البـلدْ ولا درى به أحـدْ
فهـل لديـك الآنا ما يجلِبُ السُّـلوانا
من الأمالى المُسْـلِيهْ والصُّـحُف المُلْهِيـهْ

ديون :	عنـــدىَ يا مولاتى	روائـــعُ الآياَت
	تِسْعون ألف سِـفْرِ	قـد كُتبتْ بالتّبر
	من كل رَقٍّ عجيب	فى العلم أو فى الأدب
	قيصرُ أنطونيو وهب	لنا مناجمَ الذهبْ
	وكلَّ غال مدَّخرْ	من الجواهر الأُخَرْ
	أسلابه من حربه	وطَعنـهِ وضـرْبه
	هديةٌ من قيصر	لبَلدة الإسكندر

أنشو : إذا كانت الكتْبُ فى شرعكم نظيرَ الجواهر كُفْءَ النُّضارْ
فإنى الغـنىُّ بدُرّ الفـواق ـع حين يُضعُ تِـبر العُقـار
وما الكتْبُ قوتى ولا منزلى فمـا أنا سـوسٌ ولا أنا فار

الملكة : حكيمٌ لعمرى على جهله ظريفُ الحديث لطيفُ الحوار

زيون [مغيظا] :
ولكنها حكمـةُ السائمات وفلسـفةٌ غـيرُ بنت اختبار
وكلتاهما لا تعَـدَّى الشعورَ بحُبّ البقـاء وخوف الدمار

أنشو : رويدك مولاىَ بعضَ السِّباب فليس السِّبابُ سبيلَ الكبار

هَبِ الليلَ طال فقطّعته بِدَرْسٍ وأصبحتَ تُفْنِى النهار
وأقبلت بالكتب تطوى الطِّوالَ وتَنْشُرُ فى إثْرِهِنَّ القِصار
وزِدْتَ على الأرض علمَ السماء كبارَ كواكبها والصغار
إذا ما نَفَقتَ ومات الحمَارُ أبينك فرقٌ وبين الحمار؟

زينون [عاضبا] :

ما ذا تقول السيده؟

الملكة [ضاحكة] : واحدةٌ بواحده

أبى أنو بيسُ ، أرجو

أنو بيس : بل تأمُرينَ مُطاعهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهه إليه] :

هذا مُقامُ صلاتى وهيكلى للضراعهْ
ولى خطايا كثيرةٌ لا تَبرَحُ البالَ ساعه
فادخلْ وصلِّ لأجلى فمنك تُرجَى الشَّفاعهْ

[يدخلان المحراب ويتبعهم الحاضرون ما عدا حابى وديون وليسياس]

ديون [متهكما] :

إسكندريةُ صرتِ رَفرَفَ معبدٍ من كلِّ ناحيةٍ عليه سِتارُ

اختصَّ آلهةُ الجلال بسرّه ... وتفرَّدَ الكُهّان والأحبار
ما خَطْبُهم حابى ، وماذا بيّتوا

ليسياس : ما هـذه الألغاز والأسرار؟

حابى :

أرأيتَ وقعةَ اكتيوم وما جرى ... فيها وكيف تصرّفَ المقدار!
ليسياس ، إنك قد سمعت حديثها ... كالسحر فى الآذان حين يُدار
تبدو الخيانةُ فيه وهى أمانةٌ ... ويُرى الثباتُ عليه وهو فرار
وعلمت كيف نجت وكيف انقض عن ... أنطونيُو أسطولُها الغدّار

ليسياس :

واليوم حابى ، أين أنطونيو وما ... فعلت بفَلّ جيوشه الأقدار؟
قل لى : أحىٌّ فى البلاد مشرَّدٌ ... هو أم له قبرٌ بمصر يُزار؟

حابى :

ليسياس ، تسألنى تجاهل عارف

ليسياس : بل جاهلٍ لم تأته الأخبار

حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها ... للحبِّ أجنحةٌ بهن يُطار
ويقال بل أخذته تحت شراعها ... ونجا به فُلْك لها محصار
تجرى الرياحُ بما تشاءُ قلوعُه ... ويسيرُ فى طاعاته التيار

ويُقالُ غَضبانٌ عليها عاتبٌ ويُقالُ بل حَنِقُ الفؤادِ مُثار
وعلى صفاء العاشقينِ سحابة وعلى سلامِ الصاحبينِ غُبار
آلَى وأقسم لا يُرى فى قصرها حتى يُقَوَّمَ مجدُه المنهار
إن البلاء أجلُّ من ألّا يُرَى

ديون : عجبٌ أتخفَى فى الهشيم النار؟

حابى :
أنطونيو منا بأقرب مُكنةٍ يدعو من الرومان من يختار
ويُعِدُّ أُهبتَه ليوم حاسم فى البر يُغسلُ عنه فيه العار
ويكون ميدانَ الرحى ومدارَها تلك التلالُ وهذه الأسوار
فهناك خاتمةُ الصِّراع وموقف إما الدَّمارُ بهِ وإما الغار

[يسمع صوت أنوبيس من داخل المحراب مرتلا هذا النشيد] :

إيزيسُ ذاتَ الحجابْ مالكةَ العالمينْ
شعبُك لاقى العذاب من عَبث الظالمينْ

*
* *

يا من خفضنا الجباه لعِزِّها ساجدينْ
صُغنا إليك الصلاهْ من أدمع النادمينْ

[ستار]

المنظـــر الثـــانى

«فى إحدى غرف القصر الملكى ورحى الحرب دائرة بين اكتافيوس وأنطنيوس على أســوار الإسكندرية — حابى فى الغرفة حيث تدخل عليــه هيلانة»

هيلانة : أتدْخــلُ حابى مَقاصِيرَها؟ بلغتَ من الجُرْأَةِ المنتهى
ستعلمُ أَمْرَكَ ذاتُ الجلالـ ـة.

حابى : بــل أمرتْ أن ترانى هنــا

هيلانة : عجبــت لهــا ولتــدبــيرها كذلك قـــد أمــرَتنى أنا
إذن هى تجمعنــا يا جُحُــودُ وتَجــزيكَ عن سَخَطٍ بالرضى

حابى : هــلانةُ خَلّيك من ذكرِها حديثُ الأفاعى طويل المدَىٰ

هيلانة : رُوَيدَك حابى لقد أَحسنَتْ فمالى أراكَ أَسأْتَ الجزا؟

حابى : هــلانةُ، يا طيبَهــا خَــلْوَةً وإن قَــلَّ فى ظلّها المُلتقَى
تَعــالَىْ هلانةُ نُعطِ الغــرامَ عِنانَ الحديث ونَشْكُ الجوَى
أبــلِى يــدىَّ يدَيْكِ اللّتــيْنِ نعيــمى بينهــما والشــقا
هَلُمَّ هِــلانةُ

هيلانة : حابى أَراكَ يكُنهِ الأمورِ قليــلَ الهُدَى
من القصر لا تلتمِسْ خَلْوَةً وإنْ هو من كلّ حسّ خلا

سماء القصـور لهـا أُذنان وأَرضُ القصور بِعينٍ ترى

حـابى : هلانةُ لا تقطعى نَشْـوَتى بقُـرْبِكِ أَو حُلُمِى باللِّقـا

أمهما تخيَّلتُ صَفوَ الحياة خلقتِ على جانبيْـهِ القَذَى؟

هيـلانة : حنـانَكَ حـابىَّ لا تتهِـمْ ولا ترمِـنى بعُقوق الهـوى

ولُذْ بالأناة فإنَّ الأناةَ صديقُ الصّوابِ عدوُّ الخطَا

فلو كنت وحدكَ شُغلَ الفؤاد لهـان البـلاء وقلَّ العنـا

ولكنْ حقـوقُ كلوباطْـرة

حـابى : وأى حُقـوقٍ لهـا تـدَّعى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا : حُقوقُ الولايةِ ياذا الغـلامِ حُقوقُ الرِّعايةِ يا ذا الفـتى

وَصبرى عليكَ لأجل الفتاة

حابى [مأخوذا] : إلهى لقـد سمِعت ما جرى

الملكة : وسـدّى المسامعَ حُبًّا بهـا وأَنت تُعـينُ عـلىَّ العـدا

وتُرسِلُ فى العَرشِ هُجْرَ الكلام وتُغْشِى الحفيظةَ لى والقلى

ولكنْ لنَنسَ الذى قد مضى فمثـلُكَ تاب ومثـلى عفـا

دعِ الذَّوْدَ عن مِصرَ لى إننى … أنا السيفُ والآخرون العصا

ولا تُطِعِ الفتْيةَ العابثين … أُسُودَ الكلام نَعامَ الوَغى

[إلى أنو بيس] … [يدخل أنو بيس]

أبى : قد أتيت

أنو بيس : سلامٌ عليْك … شُعاعَ المدائن نورَ القرى

الملكة : أبى قد تلاقَى هنا العاشقان … وكان بتدبيرىَ الملتقى

فبارِكْ فتاتى وبارِكْ فتاكَ … وكَفكِفْ هواه إذا ما غلا

أنو بيس : حياتك حابى كنيسيةٌ … يشاكلُ أوَّلُها المنتهى

مقيَّدة باليقين القَنوعِ … وما أَمَرَ القلبُ أو ما نهى

الملكة : كزهرِ المقاصير لم ينتفعْ … بطولِ الأديم وعُرضِ الثرى

أنو بيس : وتحسبُ فى الكتب علمَ الحياة … وما منهُ فى الكتب إلا الشَّذا

حابى : لعلّ كذى الشك فى حرصه … يَقيسُ الطريقَ ويُحصى الخُطا

أَرى راكبَ الشك ملءَ المجال … طويلَ العنان بعيدَ المدَى

ولو شكَّكتْ فى السراج الفَراشْ … لكان سلامًا عليها السّنا

أنو بيس : ولكن تمُرُّ على ما تراه … تُجاوِزُه نحو ما لا يُرى

وهذا الملاكُ … [مشيرا إلى هيلانة]

كـ ولاته طليـق الإرادة حُـرُّ الحِجَى
تَمَشَّى على جَنَبَاتِ الحيـاة كما يتمشى شُـعاع الضُّحى
يخوض الوحولَ ويغشى الحُلّ ويأوى الحضيضَ ويعلو الذُّرا
ويخـترقُ العَرَصاتِ الفِساحَ وينفُذ من ضَيِّقات الكُوَى
ويرتعُ بين أَنوف الأسـودِ ويلعب بين عيـون الظِّبا

الملكة : ولكنهُ طاهرٌ حيث طافَ نـقِيُّ الذُّيول عفيف الخُطا
أَبِى قد نسينا حديث القتال فمنـذ الصباح تـدورُ الرحى
وجيش الحليف وجيش العدوّ بظهـر المدينـة رهنُ الوغى
هنالك يُقضى مصـيرُ البلاد فإمـا البقـاءُ وإما الفنـا
ومن عجب كاد يمضى النهارُ وما من رسولٍ ولا من نبـا

[يدخل جندى من جنود أنطونيو منهوكا يعلوه الغبار]

الجندى : سـيدتى جئتُك بالأخبـار لقد جرت بسعدك الجوارى
انتصرت جنودُنا الضَّوارى تحت لـواء البطل المغْـوَار
قيصرُ أَنطونيو على آثارى

الملكة : يا فرحَا ما أَعْظَـمَ البِشاره! حلَّتْ على أُكتافيو الخَسارهْ
« وأَكتيومُ » قد أَخذنا ثاره خُذْ يا رسولُ هـذه البُشارهْ

[تمنحه بدرّة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون : سـيدتى يا طـربًا! سـيدتى يا فـرحًا!
دارتْ عـلى أكتافِهُ وجيش أكتافيُو الرحى
هيلانة : مَلْكتى هـل تسمعين
[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]
الملكة [منصتة] : صـوت بـوق وهتـاف
[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها] :
هـو والله نشـيدى والمُغنُّون جنـودى
والمخاريقُ التى تخـ ـفقُ من بعـدٍ بنودى
ولديهـا فارسٌ مُلـ ـتثم شاكى الحـديد
يتراءى فى عنان الـ ـجوِّ كالبُرْج المَشِـيد
هـو أنطنيوسُ ذُخْـرى وطـريفى وتليـدى
[إلى شرميون وهيلانة] :
أيهـا البنتـان هـذى ليـلةُ العيـدِ السعيدِ
صَلِّيـا مثـلَ صَلاتى واسجُـدا مثـلَ سُجودى
[يسجد الثلاثة لحظة . ثم تنهض الملكة أولا وتتجه نحو النافذة] :
هو ذا أنطـونيو من جانب الميناء أقبَـلْ
هيـكلٌ يحمـلهُ من صافناتِ الخيـل هيـكل

الـــرِّداءُ الأرْجُوانِيُّ على عِطفيْه مُسبل
مَبسمٌ يضحكُ من تحـ ـت جبين يتهـــلَّل
هـــو ذا يدنـــو

شرميون : أتى والـــله

هيـــلانة : مـــولاتى تـــرجَّـــل

الملكة [تبتدر الباب] :

أيُّها البنتان هـــذى لَيـــلةُ العيـــدِ الســـعيدِ

أنو بيس [هامسا لحابى] :

حابى، أحيط القصرُ بالذئاب وبى من السُّخط عليهم ما بى

[للملكة] :

سيدتى تأذنُ فى انسحابى؟ وتأذنـين مَلْكتى لحـابى

الملكة [ضاحكة] :

إلى الأفاعى؟

أنو بيس : لا إلى المحراب

الملكة : رأيـتكما فى المُكْث والذهاب

[يخرجان ويدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أورروس . أنطونيو يقبل على الملكة مادا يديه]

أنطونيو : إلهتى !

الملكة : قيصرى !

أنطونيو : سلطانى !

الملكة : مَلِكى !

أنطونيو : عندى لكِ اليومَ يا دُنياىَ أَخبارُ

الملكة : عَجِّلْ فديتُكَ

أنطونيو : لا ، لا بدَّ من ثمنٍ

الملكة : كرائمُ المال؟

أنطونيو : ما للمال مقدارُ

[يمد إليها جبينه فى ضراعة] :

رُدِّى على هامتى الغارَ الذى سُلبتْ فقُبلةٌ منك تعلوها هى الغارُ

[تقبله]

كليوباترا :

اليومَ تعلم رُوما أَن ضَرَّتها تُقَلِّدُ الغارَ مَن تهوَى وتختار

واليومَ تعلمُ روما أَن فارسَها جيشٌ بمفردِهِ فى الرَّوْعِ جرّار

أَنطونيو سيدى ، هل نحن فى حُلُمٍ؟ أسالمٌ أَنت ؟ لا أَسرٌ ولا عار؟

أنطونيو :

أَسرٌ؟ وَهِمتِ كلوباترا ، أتظفَرُ بى أَيدى الكُماةِ وفى كفَّىَّ أَظفار

لو قلتِ قتلٌ لكان القولُ أَشْبهَ بي ... كأسُ المنايا على الأبطال دَوّار

الحربُ تَعلمُ والأيامُ تَشهدُ لي ... أني شديدٌ على الأقران جَبّار

لو كنتِ شاهدتني والحربُ جارفةٌ ... والصفُّ تحتيَ بعد الصفِّ ينهار

قد جُنَّ تحتي جوادي فهو عاصفةٌ ... وجُنَّ نَصْلي بكفي فهو إعصار

رأَيتِ حملةَ صدقٍ غيرَ كاذبةٍ ... لا السَّيْلُ يحملُها يوماً ولا النار

لما صَدمتُ جناحيْهم وقلبَهمُ ... عن الخيام ومن أَوكارهم طاروا

وما وجَدتُ لأكتافيو وقادتهِ ... ريحاً، ولم أتبيّنْ أَيَةً ساروا

ومالتِ الشمسُ أَو كادتْ فراجعني ... شوقٌ إليكِ قديمُ الداء سَوّار

حتى رَجَعتُ ولو أني طَردتُهمُ ... لباتَ أكتافُ عندي وانقضى الثار

كليوباترا :

تركتَهم لغدٍ ! هذي مجازفةٌ ... غدٌ غيوبٌ وأَسرارٌ وأقدار

[مخاطبة أوروس] :

أُوروسُ، أَنت بفنّ الـ ... ـقتال أَعلَمُ منّي

الحربُ فنُّك أُورو ... سُ والسياسةُ فنّي

إن كان «مَرْكُ» إلها ... فأنت في الحرب جِنّي

فكُنْ بحقّك عَوني ... وقلْ لقيصرَ عنّي



ردّى على هامتى الغار الذى سلبت فقبـلة منك تعلوها هى الغار

(صفحة ٣١)

إن المنى لم تُقصّرْ — بل قصّر المتمنى
فلو صبرتم قليلا — وسرتمُ فى تأنى
أرحتمونى وروما — من الخصام المعنّى

أوروس : سيدتى لم تقصدى — لما عذلت سيدى
عجّلتِ فى الحكم على — ما لم ترىْ وتشهدى
لقد حملنا حملة — كمثلها لم يُعهد
استنفذتْ بأس القنا — وقوّة المهنّد
فكان لابد لنا — نُرجى القتال للغد

أنطونيو : كليوباترا دعينا من — تجنّيك كليوباترا
أتبكين على الصبر — وقوم حُرموا الصبرا ؟
وبى من صبرك الواهى — جراحُ الأمس لم تبرا
لقد منّيتُ أسطولى — لدى أسطولك النصرا
حليف كنت أرجو أن — سأشتدّ به أزْرا
فعبّا تحت أعلا مـ — ـك حتى زحما البحرا
وقد كانا الجناحين — وقد كنتُ أنا النّسرا
وأجرى الفُلْكَ أكتافيو — فأجريتُ كما أجرى
صففْناها وأرسلْنا — بها تقتحمُ الجمرا

كلانا مارَسَ الحربَ وعانى الكَرَّ والفَترا
فلما آذنتْنا الحر ب بالمعركة الكبرى
تَسلَّلْتِ بأسطول ك من غمرتها الحرَّى
فقلتُ انسحبتْ ضعفًا وقال الناسُ بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

كليوباترا : أنطونيوسُ مَلكى أنطونيوسُ سيِّدى
ليس العُبوسُ سُنَّةً لوجهك الطَّلْق النَّدى
ولستَ من يغضبُ فى ليل الشّراب والدَّد
ولستَ للكأس على شاربها بالمُفسِد
قلبُك كنزُ الحب والر حمةِ والتودُّد
وكم حَقَدتَ ثم أصـ بحتَ كأن لم تحقِد
ألستَ بالأمس وأمـ س لفتنة لم تبعُد
وهبتَ لى جريرتى والصفحُ نصفُ السُّؤدد
فاطوِ معى حوادثَ الـ أمس ولا تُجَدِّد
وامضِ معى فى لذّةِ الـ يوم ودَعْ همَّ الغد

أنطونيو : كلوباترا بحبِّك من التأنيب خلِّينا
لقد سُقتُ وقُوّادى إليك النصر فاجزينا

مُرى بالكاسِ والطاسِ ... وبالندمان يسقينا
وبالقصف وبالعزفِ ... وحُذّاقِ المُغنّينا
وما طُيّب ألواناً ... وما طاب رياحينا
وقولى الشعر عُلويّا ... كما كنت تقولينا
وأوحيه إلى شادي ... لك يُلقيه فيُشجينا
غدًا نستأنِفُ الحربَ ... ونَطويها ميادينا

انشو : ونَغشاها مَخامِيرَ ... ونلقاها مجانينا

كليوباترا : مُرْ بما شئتَ قيصرُ ... وأَشِرْ كيف تأمرُ
لكَ قصرى وما حوى الـ ... ـقصرُ كلُّ مُسخّرُ
ليس شىءٌ وإن غلا ... عن حبيبٍ يُؤخّرُ
لتكوننّ ليلةً ... آخرَ الدهر تُذكَرُ
لا نُبالى إذا صفتْ ... بعدها ما يُكدّرُ
تَحلُمُ الحُلْمَ لستَ تد ... رى بماذا يُفسّرُ

[لوصفائها ووصيفاتها] :

البِدارَ البِدارَ يا وُصفائى ... ووصيفاتىَ البِدارَ البِدارا
قيصرٌ قيصرٌ هو الآمرُ النا ... هى على القصرِ فليكنْ ما أشارا
هو يبغى وليمةً فاصنعوها ... واسقوها كما اشتهى واختارا

أَطلِعوا هـذه الشموعَ شُموسًا ... تَـذَرُ الليـلَ بالعَشِيِّ نهـارا
وأعِدّوا الخِوانَ قد حُمِّل الأل ... ـوان شَـتَّى وجُلِّلَ الأزهـارا
واجمعوا بالمُدام شَمْل النَّـدامَى ... وأديروا الكؤوسَ والأوتارا
واجعـلوها وليمـة وبِسـاطًا ... يتبـارى خلاعـةً ووَقارا
مصرُ إِن أوْلمتْ سَمتْ بالأغانى ... درجات وأسمت الأشـعارا
لا تَسـيروا عـلى ولائم روما ... سَرَفًا فى الفُسـوق واستهتارا
كلما أولمتْ أساءتْ إلى العقـ ... ـل وجَرَّتْ على الحضارة عارا
ولقـد تجعـلُ الثِّمـارَ نَداما ... ها وأسْـد العَرينـةِ السُّمّارا

قائد رومانى [لزميله غاضبا] :

أتسمعُ ما تقـول عَدوُّ روما؟ ... قـد اجترأَتْ على روما البَغِيُّ
أتَمحـت لـوائها وبجانبيْهـا ... يخوضُ الحربَ مِن روما كَمِيٌّ؟

الآخـر :

غـدًا تَلقى وإن غـدًا قريبٌ ... عقـابًا فى البـلاد له دَوِيّ

الأوّل [لأنطونيوس فى عتب وغضب] :

أَميرِى أَنطونيو أفى الحق أَننا ... نَبيتُ سُـكارَى والعدو مُبيِّتُ؟

[ينظر اليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد] :

أَلا إنه ليـلٌ له ما وراءه ... غرامُك حيٌّ فيه والمجدُ ميِّت

« ســتار »

الفصـــل الثـانى

«فى حجــرة الولائم بالقصر الملكى ، حيث ترى كليوباترا ووصيفتاها هيـلانة»
«وشرميون، وأنطنيوس، وأوروس ، وبضعة من القؤاد الرومان ، وأولمبوس»
«طبيب الملكة ، وأنشو مضحكها ، وعانميز ساقيها ، وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو : قيـامًا نَشرب الخمــرَا عــلى حُبّ كلـوباترا

كليوباترا : على حُبــك أنطـونيو على الجيش على مصرا

قائد رومانى : على روما

كليوباترا : دَعــوا روما ولا تُجروا لهـا ذِكْرا

فمـا أنطـونيو منهـا وإن كان ابنَها البِكْرا

ولكنْ تحت أعلامى يَقــودُ الـبرَّ والبحرا

القـائد : أحــقٌّ ماركُ أنطونيو س مِن رومِيَّةٍ تَـبرا ؟

[تنظر اليه كليوباترا فيقرأ فى عينيها ما تريد]

أنطونيو : أجلْ أَتبــعُ مــولاتى ولا أعصِى لهـا أمرا

كليوباترا : على حُبــكَ أنطــونيو

أنطونيو : ثلاثًا أربعًــا عَشْرًا

أنشــو : وإن شئتَ فعشرينَ الى ما فوقهـا سُــكْرا

وإن شئت من الدنيا وصَلْنا السُّكْرَ للأخرى

قائد رومانى [لزملائه همسا] :

دَعـوا أنطونيـو إنى أرى السُّـكْرَ به أزرَى

لقـد كان الفـتى الفَطْنَ فصـار الحَـدَثَ الغِـرّا

قائد آخر [همسا] :

سنَلبثُ ساعةً نحتالُ حتى إذا سُلَّتْ عُقـولهُمُ انسلَلْنا

فما المُتَدَلِّه السِّكِّيرُ أهلا لِتنصُرَه السيوفُ إذا استَلَلْنا

الحاجب :

أَيـاسُ المغَـنّى وجَـوْقَةُ العُـزّافِ

وراقصاتُ القصرِ

[يدخلون]

كليوباترا : أهـلًا بوفـدِ الآلهـهْ أهـلِ الفنونِ النابِهَهْ

الحاجب : الشيخُ زَيْنون

رُبّانُ أنطونْياد [يدخلان]

أنطونيو : ماذا عن الأُسـطول منـ ـكَ يا أخيـلُ تعلمُ ؟

هـل تمَـدتْ فتنَتُـه أو لم تزَلْ تَضَـرّمُ ؟

أخيـل : مَـولايَ إن البحـرَ يُخْـ ـفى سِـرّه ويكتُمُ

وما نـــواه فى غـد — مثـل غـــد مستبهم
فـلا أقـــولُ مُقـدِمٌ — ولا أقـولُ مُحجِـــم
ولا أقـولُ ينـــبرِى — للحــرب أو يستسلم

كليوباترا : أخيلُ ، دَعْنا من غدٍ — إن غــدًا توهــم
أخيلُ ، ما العيشُ سوى — ساعةِ صـــفوٍ تُغتَنم
فـلا تكنْ كداخــل — على النَـدامَى يلطـم
أتيتَهـــم مُنـــادمًا — لم تأتِهــم لينــدموا
اليــومَ شُربٌ

زيـون : وغـــدًا — حـــربٌ

عانميـير : كلامٌ مُحكَم !

الحاجب : بـــولا الشـاعرْ — حَـــبرا الساحرْ

كليوباترا [ضاحكة] :
حبرا ، أعنـدك سِحـرٌ — يَشُلّ طاغوتَ رُوما ؟
ويجعلُ النـاسَ فيهـا — حِجـارةً ورُسـوما ؟
[القوّاد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو : سيدتى لا تجرحى فؤادى — ولا تنالى بالأذى أجنادى
وقلّلى السُّخط على بلادى

كليوباترا : أنطونيو ما أنت رومانىٌّ ألم تقــلْ إنك لى جُندىٌّ؟

أنطونيو : بلى، وددت أننى مِصرىٌّ وأننى تابعُــك الــوفىٌّ

* ما فى سوى رضاك لى مُضِىٌّ *

أنشــو : تــلك واللهِ قضــيهْ أصــبح الراعى رَعيّــهْ

حَــكم الحبُّ عــلى قيـ ـصــرَ والحُــب بليّــهْ

صــار كالشعب وسَاوَى هَمَــجَ الإســكندريهْ!

أنطونيو : حبرا، تكلّــمْ ألا عجيبــةْ؟ من سِحر مَنْفٍ أو سِحر طِيبهْ

حــبرا : إلهَ الحــرب سامحنى فإنى غُلِبتُ على أبالستى الغِضابِ

هُمُ لا يَجلِسون على غِنــاء ولا يتحدّثون على شراب!

كليوباترا : ولكنْ قيصرٌ يدعوك حبرا وقيصرُ لا يُردُّ بلا جواب

وانت الكاهنُ العَرافُ فانظر أغيرُ السحر شيءٌ فى الجراب

حــبرا : إذا ما شئتِ مولاتى فإنى أُطالع فى الكُفوف وفى الكِتاب

كليوباترا : أُدْنُ من قيصرَ حــبرا وانظُــرِ الكفّيْنِ واقــرا

أنطونيو : تعــالَ حــبرا وقاِــبْ يــدىَّ يُمــنى ليُســرى

لعــل أســرارَ كفى كواشِــفٌ لك سِــرا

[يتقدّم حبرا و يمعن فى كف أنطونيوس]



ألا ترى لى بقاء؟ ألا ترى لى عمرا؟

(صفحة ٤٣)

ألا تَـرى لى بقـاء ؟ ألا تَـرى لىَ عُمْـرا؟

حـبرا : يا عَجَبَ الفـال ! مولا ى أعجبُ النـاس أمرا

حيـاتُـه بيـديْـه والنـاسُ يَحيَـوْن قَسْرا

إن شئتَ عشتَ نهـارا أو شئتَ عُمِّـرْتَ دهرا

[قائد رومانى إلى زملائه همسا] :

لو كنتُ منه قريبًـا لقلتُ فى أُذْن حـبرا

حيـاتُـه فى يَـديْـه أم فى يَـدىْ كليـوباترا !

كليوباترا : تعالَ الآنَ سَلْ كَفّى وبيِّن ما الذى تُخـفى

[يتقدّم حبرا إليها و يمسك يدها بعناية وشغف]

حـبرا : يا لكِ كَفًّا كنَقِىِّ العـاج ناعمـةٍ كَخمَـلِ الدّيبـاج

لامِسُها من الجحيم ناجى !

[ضحـك]

تفدى الأَكُفُّ كلُّها يمينا بيضاءَ حمراءَ ترِفُّ لِينـا

كما أَطَلّ الشّفقُ النّسْرينا

أنطونيو [ضاحكا] :

سمِعتِ حبرا مَلْكَتى كيف ابتكرْ كُلِّف أن يَصنعَ سِحـرا فشَعَرْ

بولا الشاعر : السحرُ والشعرُ سواءٌ فى الأثرْ

كليوباترا : لقد أعجبكَ الشعرُ وراقتْكَ معانيهِ
وما سَرّكَ أنطونيو سُروري كلُّه فيه
فما تأمرُ فى حبرا بأىِّ البِرِ أجزيه؟

حبرا [لأنطونيو] :

جائزتى يا سيّدى تقبيل هذه اليدِ!

أنطونيو [ضاحكا] :

قَبِّلْ ولا تَرَدَّدِ!

[يقبل يديها بين إقدام وإحجام]

حبرا : عَجَبٌ عينىَ لا تقـ ـوَى على هذا الضياء
هذه كفُّ إلهٍ جاء فى زِىِّ النساء

كليوباترا : خَلِّنى مِن زُخْرُف المد ح ومِن زورِ الثناء
ما وراءَ اليد يا عـ ـرّافُ من غَيْب القضاء؟
أحضيضٌ يومىَ الآ خِرُ ـ قل لى ـ أم سماء؟
خاتَمُ الأيام أَوْلَى باهتمام العظماء

حبرا : مَلْكتى يومُكِ فى الأيّام منشور اللواء
نابهُ الصبح كيوم الشـ ـمش عُلْوِىُّ المَساء

خَطَـر العِــز عليــه ومشى فيــه الإباء
ثم يتــلوه بقــاء لــم يُطــاولْه بقــاء

أنشو [لزينون] :

رأيتَ الشعرَ قدأجدَى فمــاذا قلتَ يا فار ؟

زينون : إلهــتى وملاكــى كُفّى المُهــرِّجَ عـنى
قـــد نال منى ولــولا ناديكِ ما نال مــنى

أنشــو : سيدتى عبدُكِ أنشو قــد صدقْ
الفــارُ فى مكتبةِ القصــر نطــق
يقــول إن أسرقْ فزينونُ سَرق !
همِّى فى الجِــلد وهمُّــه الــورق
يسطــو على آثار كلِّ من ســبق !

أنطونيو : إنى أرى أنشو وأمثــالَه زادوا على زينونَ فى الجُرْأةْ
يا ويْحَ للشيخ على فضــله أصــبح فى مجلسهم هُزْأةْ

أنشــو : هَبــوه فى الدرس بحــرًا هبــوه فى العــلم أُمّــه
لا يَخــلُقُ العــلمُ نفسًــا ولا يُنبِّــه همّــه

كم عالِمٍ في يد الجـا هلين مُلْقَى الأَزِمَّـه

كليوباترا : أَقِلَّ المَـزجَ يا أنشو وأرســلْه بمقـدار
فلولا الجهلُ ما رُحتَ تَقيسُ اللّيثَ بالفار

زينون : يا سماء احفظي ويا أرض صوني
أظهـرتْ عَطفَها على زينـون !

كليوباترا : يـا غانمـيز هاتِ النبيـذْ
هاتِ اسـقني واسقِ الحبيب
واسـقِ المَـلا .

بولا الشاعر : بنتُ الدِّنـانْ أُمُّ الزمانْ
خبَّـأهـا في قَـبْـوِهِ
ساقي مِنـا
لـونُ القَـرَحْ حِنّـا القَـدَحْ
سِـرُّ السرورْ صَـفوُ الحيـاهْ
قُـوتُ المُنى

كليوباترا : قيصرُ ذي سُلافةُ الفيومِ
تُنمَى إلى عَقـائل الكُروم

مَخبوءة من عهـد مصرائيم
قـد عُمِّرت كعُمُر النجوم
دِنانُ مصرٍ لا دِنانُ الروم

القوّاد الرومان [يدمدمون ويتهامسون] :

قائـد : قـولوا يا رومانيّونا تحيا روما

آخـر : تحيـا

ثالث : تحيـا

أنشو [ضاحكا] :

تحيـا الخمـر يحيـا السُّكْرُ

القوّاد : تحيـا روما

جماعة من المصريين : تحيـا مصـرُ

أنطونيو : أيها الشادى أياسٌ بلـغ السُّكْرُ مَـداهْ
غَنِّنى شـعرَ مَلاكٍ . غنّـنى شـعرَ الإله
أنا لا أطرَبُ حتى أسمعَ «الحبُّ الحياه»

أياس [مغنيا] :

أنا أنطونيـو وأنطونيـو أنا ما لرُوحينا عن الحُب غنَى

غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا   نحن فى الحب حديثٌ بعدنا

* * *

رَجَّعتْ عن شَجْوِنا الرِّيحُ الحَنونْ   وبعينينا بكَى المُزْنُ الهَتونْ
وبَعثنا من نُفاثاتِ الشُّجونِ   فى حَواشى الليل بَرقًا وسَنَى

* * *

خَبِّرى يا كأسُ واشهدْ يا وتَرْ   وارْوِ يا ليلُ وحدِّثْ يا سحَرْ
هل جَنَيْنا من رُبا الأُنس الثَّمرْ   ورشفنا من دَواليها المُنَى

* * *

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياهْ   هو من سَرْحتها سِرُّ النَّواهْ
وعلى صحرائها مَرَّتْ يداه   فجرتْ ماءً وظلا وجَنَى

* * *

نحن شعرٌ وأغانىٌّ غدا   بهوانا راكبُ البيد حدا
وبنا المَلاّحُ فى اليمّ شدا   وبكَى الطيرُ وغَنَّى مَوْهِنا

* * *

مَن يكنْ فى الحب ضَحَّى بالكرَى   أو بمسفوح من الدمع جرَى
نحن قرَّبنا له مُلْكَ الثرى   ولَقِينا الموْتَ فيه هيّنا

* * *

فى الهوى لم نألُ جُهدَ المُؤثر   وذهبنا مَثَلًا فى الأعصُر

هو أعطى الحبَّ تاجيْ قيصر لم لا أعطى الهوى تاجيْ منا

* * *

صوت : مرحى مرحى يحيا الفنُّ
آخر : يحيا الشعرُ
ثالث : يحيا اللحنُ

[تقوم كليوباترا الى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد رومانى [لزميل من زملائه هامسا] :

هلاّ نظرتَ الى الأميرة؟ إنها سكرى تعثّرُ فى خليع عِذارها
آخر : وتأمّل المفتونَ كيف جرى على آثارها وانجرَّ فى تيارها

آخر [لزملائه حيث يسمعه أوروس وأولمبوس] :

وانظرْ الى أوروسَ فى تَرَدّدِهْ يأبى الهُتافَ معنا لمَولدِهْ

أولمبوس [ساخرا] :

أوروسُ مِلءُ يومه مِلءُ غده فتى تَضِجُّ الحروبُ من مُهنّدهْ
ويَشتهى الأبطالُ فضلَ سُؤدده قد راعنى فناؤه فى سيده
بنفسه وقومه ومَولده يَغلو غُلوَّ الكلب فى توَدّده

يُقيِّدُ الكلب وراء مَرصَده فيحرسُ الدارَ على مُقيِّده

أوروس :

تلك الدُّعابةُ يا طبيبُ ثقيلةٌ فحَذارِ ثم حَذارِ من تكرارها
لولا الوليمةُ والشَّرابُ وحُرْمةٌ لأميرة الوادى السعيد ودارها
انتزعتُ من أقصى لهاتِك مُضْغةً كثُرَتْ على الأبطال فى استهتارها

أولمبوس :

أوروسُ !

أوروس :

أولمبوسُ صَهْ برِحَ الخفا ورأيتَ نفسَك فى مَفاضِحِ عارها
ماذا خبأتَ من السُّموم لملكةٍ غفَلَتْ عن الأفعى ولُؤمِ جِوارها ؟
إلّا تكنْ علِمتْ فإنك عندنا جاسوسُ اكتافيو على أسرارها
ما زلتَ منذ وفدتَ تُطلِعُه على أخبارِ قيصر أو على أخبارها
إنا رجالَ الحرب ليس يَفوتُنا لحْظُ العيون ولا خَفِيُّ حِوارها

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد رومانى ويهمس إليه] :

أقْصِرْ أخى إن الجماعةَ عربدت فإذا لَجِجتَ لَفَتَّ من أنظارها
إسلَمْ بنفسك فى الظلام ولا تُثِرْ ريبًا أخافُ عليك غِبَّ مَثارها



تلك الدعابة يا طبيب ثقيلة فحذار ثم حذار من تكرارها

(صفحة ٥٠)

إنى لأخشى الكأس أن تجرى دمًا فتُصيبَ شيئًا من رَشاش عُقارها

أولمبوس [لنفسه وهو ينسل الى الخارج] :

أوروس ! أنطونيو ! حسا بُكما غدًا روما الأبيَّةُ لم تنَمْ عن ثارها

[يخــرج]

أنطونيو [من أقصى البهو] :

أما للرقص هيــلانـ ـةُ فى ليلتنــا حِصّــهْ ؟

ألا نجمَــعُ بين الكا س والنغْمة والرقصه ؟

فهذى فُرصةُ الأُنس وقد لا ترجع الفُرصه

هيــلانة : الراقصــاتُ يقمْنا الراقصـــاتُ يثِبنــا

ولا يدعْنَ افتنانا ولا يُقصِّــرْنَ فنَـــا

[تقوم الراقصات ، برقصة مصرية]

أنطونيو [منادبا] :

مرحى مرحى يحيــا الفنُّ

صــوت : يحيــا الــرقصُ

آخـــر : يحيــا الحســنُ

أنطونيو :

قد انتصف الليلُ أوفوق ذاك وآذنَنــا بالمُضىِّ الدُّجَـــى

ودونَ الخيام سُرى ساعةٍ — وعند الصباح تدورُ الرحى
فهل تأذنين لنا يا ملاكُ — فلا بد من سِنةٍ من كرى
ولستُ أقولُ ملاكى الوداع — ولكن أقول إلى الملتقى

كليوباترا :

مكانك قيصرُ لا تذهبنّ — ولا تبرحِ القصرَ أهلكْ أسى

أنطونيو :

ذَريني أُعبّئْ للقتال كتائبى — فلى فى غدٍ شأنان فى البر والبحر
ذريني اهيّئْ للأحاديث فى غدٍ — فإن غداً يومٌ سيبقى على الدهر
ذريني أَزِدْ تاجيكِ غارَ وقائعى — وأقرن بشعبانىْ جلالهما نسرى
ولستُ أخافُ الدارعِينَ وإنما — أخافُ بفُجاءاتِ الخيانة والغدر
وليس كَمِينَ الحرب ما أنا هائبٌ — ولكن كمينَ الغدر فى ظُلمة الصدر

[الأحيل] :

فياقائدَ الأسطول هل من مكيدةٍ — تُدبَّرُ لى خلفَ الشِّراع وما أدرى؟

كليوباترا :

إمضِ إلى الهيجاء أنـ — طونيو كما يمضى الأسدْ
إن الأسود فى اللِّبَدْ — دونك فى هذا الزَّرَدْ

إِمض إِلى المجـد ولا يُقعِدْك شُغلٌ في البلد
المجدُ لا يَسألُ عن صاحبـةٍ ولا ولَـد
أنت لـروما في غـدٍ وقيْصرونُ بعـد غـد
والشرقُ سلطاني الذي إِكليلُه لىَ انعقَـد
ياليتُ سِرْ ياأنطونيو عُدْ ظافرًا أو لا تعُـد

« ستار »

الفصل الثالث

« معبد في الاسكندرية ، يقسم جداره المسرح الى قسمين »
« القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة ، والقسم »
« الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر أنوبيس »
« وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقائق وقوارير وهنالك »
« صرر وصناديق يشف بعضها عما فيه من أفاع وحيات — باب »
« خلفي يؤدّى الى المعبد . ونافذة جانبية تطل على الفضاء »

[في حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجى نفسه] :

يقولون أنوبيسٌ — وَلوعٌ بأفاعيه
ومشغوفَ بثعبانٍ — من الوادى يُربّيه
وفى ناديه حيَّاتٌ — من الجن تُناجيه
ولو ذاقوا هوى العلم — كما ذقتُ فَنَوا فيه
ألا يارُب خدّاعٍ — من الناس تُلاقيه
يَعيبُ السمَّ فى الأفعى — وكلُّ السم فى فيه !

[يخرج من الباب الخلفى]

*
* *

[خارج الهيكل — تحت الشجرة — أنطونيوس وأوروس]

أنطنيوس : أوروس إنى جَهِدتُ مَشيا — ومَسَّنى الضُر والكَلالُ

قِـلْ بنا نَسترِحْ قليـلا   من قبلِ أن يَدهَمَ الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى] :

أوروسُ،ماذا دهانى؟   حتى نَسيتُ مكانى
أتيْتُ ما هَدّ مجدى   وحَطَّ رفعـةَ شانى
جلّلتُ نفسى بعـار   يبـقى بقـاء الزمان
لمـا حَمَلتُ جوادى   على الفِـرار ازدرانى
وضجّ مِـنىَ سـيفى   وصجّ مـنى سِـنانى
ووَدِدتِ الأرضُ تحتى   لو طُهِّرَتْ من عِيانى
أنا الذى كان أمضَى   من الحـديد جنانى
الشرقُ يَدرى نِزالى   والغربُ يَدرى طِعانى
كانَ الملوكُ عبيدى   فصِرتُ عبدَ الحسان
ولسـتُ أوّلَ حُـرٍّ   إسـتعبدتْه الغـوانى

[يسكت لحظة ثم يستمر] :

ولم أرَ كالحرب استراح قتيلُها   وأفضى الى القَيْدِ الأسيرُ المُقَيَّدُ
ولكن شقىٌّ الحرب والمُصطلى بهـا
إذا انفضّتِ الحربُ الطريدُ المُشَرّد

ولولا اختلافُ الحرب بالناس لم يَهُنْ
عزيزٌ ولم يَنزِلْ على القيْد سيّد

أوروس :

وقارَكَ قيصرُ لا تجزعنّ — وخلِّ المقاديرَ تجرِي المدَى
تَلقَّ الهزيمةَ ثَبْتَ الجَنان — كما كنتَ تلقى الفُتوحَ العُلا
فما أنتَ أولُ نَجمٍ أضاء — ولا أنت آخرُ نجْم خبا
وقد تنزِلُ الشمسُ بعد الصعود — وتَسقَمُ بعد اعتدال الضُّحَى
ويارُبَّ غارٍ عَراه الجُفوفُ — على هامةٍ قد علاها البِلى
أمالك أنطونيو أُسْوَةَ — بيوليوسَ قيصرَ أين انتهى؟
رأيتك والحربُ تَبْلو الكُماةَ — فأشهدُ كُنتَ إلهَ الوغَى
وقد كان سَيفُكَ غُولَ السيوف — وكانت قَناتُك غولَ القنا
وكنتَ إذا الموتُ أفضى إليك — تحدّيْتَه فانثنى القَهْقَرَى
وكان جُنودُك شَرَّ الجنود — عليك وخيرَهمُ للعِدى
فخانت أساطيلُ أمّلتَها — وجيشٌ عَقدْتَ عليه الرجا
وخُلِّفتَ في عَسكرٍ كالنِّعاج — كثيرِ الثُّغاءِ قليلِ الغَنا
فمن يائس مات قبل القتال — ومن خائنٍ فرّ قبل اللقا

أنطونيو :

إذنْ لم أكنْ فى الوغى بالجبان ولا خُنتُ أوروسُ عهدَ الهوى ؟

وتشــهدُ أنىَ أنطونيــوس وأنى ابنُ روما وأنى الفتى ؟

فإن عِشتُ عِشتُ نَقِىَّ الجبين وإن مِتُّ مِتُّ كريم الثنــا

[يرى أنطونيو شبحا فيسأل أوروس مبهوتا]

أنطونيو : أوروسُ !

أوروس : مولاىَ

أنطونيو : تأمَّلْ مَن ترى ؟

أوروس : هذا أولِمبوسُ وقد حَثَّ الخُطا

أنطونيو : تُرَى إلى أين ؟ ومن أين أتى ؟

أوروس : ها هو سارٍ نحونا ها قد دنا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس : تحيــــةً قيصـــرُ

أنطونيو : بل أنطونيو لا غير بل قُلِ الشَّريد المُقتَفَى

لا تخدعونى قادراً وعاجزاً كفى غروراً بالوِلايات كفى

أولمبوس : مــــولاى

أنطونيو : لستُ اليومَ مَولَى أحدٍ أكتافيو السيِّدُ والعبدُ أنا

مررت بالقصر فكيف ناسُه؟ هل عن كلوباترا أولمبوسُ نبا؟
صرِّحَ أينْ، قُلْ عدرتْ، فل جددتْ بقيصر الثالث دُولَةَ الهوى
قد صَنعتْ بى عند حاجة الوغى ما لم يكنْ يصنعُه بىَ العدا
أسطولُها إلى مراسيه أوَى وجيشُها ألقى السلاحَ ونجا

أولمبوس : مولاى ! أعْفِنى

أنطونيو : تكلمْ لا تخفْ إنى أرى عليك رَوْعَةَ الأسى

أولمبوس :

مولاى مهلًا فى الظنون واتّئِدْ إن من الظن اتهامًا وأذى
أنت على مالكَ من مُروءةٍ رميتَ بالغدر أحب من وفى

أنطونيو : ماذا تقول ؟

أولمبوس : كيلبترا انتحرت بطعنة الخنجر فى صدر الضحى

أنطونيو :

ياللسماءِ ! انتحرتْ ! أَين؟ أَينْ ولمْ؟ وكيف كان ذاك؟ ومتى ؟

أولمبوس :

مَررْتُ بالقصر ضُحَى اليوم فلم أَجدْ له نَظْما ولا حُسنا يُرى

بَدا لعينيَّ خَلاءً موحِشا غيرَ عويلٍ هاهنا وهاهنا

أنطونيو : إنتحـرتْ ! يا لِلْخـبرْ! ويا لِقسـوة القــدر !

إن الأمـورَ انتقلتْ من خَطـرٍ إلى خَطر

ما غَـدرتْ وإنمـا أنا الذى بهـا غَـدر

وانْجَلتا من قولهـم انتحـرتْ وما انتحـر !

إذهب أُولمبوسُ ودعـ ـنى والهمومَ والكدر

ما بجِـراحات القـلو ب للأطبّـاء بَصَـر

[يذهب أولمبوس]

[لـــروما] :

روما حنانَك واغفرى لفَتاكِ أوّاه منك وآهِ ما أقسـاكِ !

روما سلامٌ من طَريدٍ شارد فى الأرض وَطّنَ نفسَه لهلاك

اليومَ يَلْقى الموتَ لم يهتِفْ به ناعٍ ولا صَجَّتْ عليـه بواكى

إن الذى أعطاكِ سُلطانَ الثرى لم تنعَـمى لـرُفاته بـثراك

إن الذى بالأمس زنت جَبينَه بالغارِ عقّك جُهدَه وعصاك

يا رُبَّ تاج فى جبينك زاهر عطَّلتُ منه مفارقَ الأملاك

الأُمّهـاتُ قلوبُهنّ رقيقـةٌ ما بالُ قلبِـك لم يَلِنْ لفتاك !

أَعْرَضْتِ غَضْبى فى الحياة فرحمةً   لا تحرميني في الممات رضاك

إن كان موتى كلَّ ما تبغينه   فهناك ! هأنذا أموتُ ، هناك !

يا أُمُّ ، عذرُك فى اتّهام بنوّتى   بادٍ وعذرِىَ فى العقوقِ كذاك

لولا الجمالُ وفتنة من سحره   ما حلَّ فى قلبى هوًى لسواك

صفحًا كلوباترا فربّتَ زَلّةٍ   قد كنتِ تغتفرين حين أراك

لما لقيتُك فى الجمال وعزّه   قهرتْ قُوَاى الظافراتِ قُواك

فنسيتُ فى ناديك ذِكْرَ وقائعى   وسلوتُ أيامى بيوم لقاك

سجدتْ لأعلامى الصوارمُ والقنا   وأبى يُهنّدُ لحظك الفتّاك

قدتُ الجحافلَ والبوارجَ قادرًا   ما لى ضَعُفْتُ فقادنى جفناك؟

أخرجتِ أمرى واختيارى من يدى   وتركتِنى نفسًا بغير ملاك

خلتُ السلامةَ فى نَوالِك فذقتُها   فإذا الكوارثُ كلهنَّ نواك

عاديتُ قومى فى هواك وأضرمتْ   روما علىَّ الحربَ من جرّاك

وشرَدْتُ فى شرق البلاد وجدّفى   طلبى عداىَ بغربها وعداك

أغدو على سيف العدوّ ونارِه   وأروحُ بين مكامنٍ وشِباك

وتلمّستْ نفسى السيوفُ ورامنى   فى البر والبحر الكمىُّ الشاكى

كانت حياتى للرجالِ أليّةً   واليومَ هُنْتُ فأقسموا بهلاكى

ولقد ذهبتُ من الظنون مذاهباً فذممتُ عهدكِ واتهمتُ وفاكِ
حتى إذا حُـمَّ القضاءُ وراعني عُطْلُ المقاصر من بهاء حُلاكِ
ضَحَّيتُ بالدنيا وقُلت رخيصةٌ وبذلتُ أيامي وقلتُ فِـداكِ

* * *

أمانًا إلهَ الحرب ما أنت صانعٌ بهذا الحُطام المُسْتباح المُبَعثَرِ ؟
لقــد ذَلَّ من بعــد امتناعٍ كأنه بقيةُ نَصْــلٍ أو رُفاتُ غَضَنْفَرِ
صَــدعتَ أكاليــلى وحَطَّمت صارمى وجَرَّدتني من أرجــوانى المُظَفَّرِ
ولم تألُنى هدْمًا وكــنتَ بَنيْتنى بنــاءَ الصَّــناع القــادر المُتَجبِّرِ
ملأْتَ سبيلى بالهوى وصروفه ومن يَمشِ فى أرض الهوى يتعثَّرِ
تنكَّرتَ حتى اخترتَ لى مَعْولَ الهوى فليتَــك لم تَغضبْ ولم تتخــيرِ
أُروسُ غلامى ، إن فى النفس حاجةً

أوروس : وعندىَ أقصى طاعة العبد فَأْمُرِ

أنطونيو :

أُوروسُ أرى الدنيا بعينىَّ أظلمتْ وكانت قديمًا كالصباح المنوَّرِ
وضاقت بىَ الأرضُ الفضاءُ فكلُّها سبيلُ طريدٍ ضائــعِ الدَّم مُهدَرِ
غَوَيتُ وأَوْفَى بى على الحُفرة الهوى نَفَفتُ ، ومن يركبْ شَفا الجُرْف يُذْعَرِ
فَشَعريرةُ الخوف اعترتْنى ولم تكنْ إذا ما اقشعرتْ تحتى الأرضُ تعترى

مُلِئتُ من الأحداث رُعباً فضُمَّني — اليك وقرّبْ من إزارك مئزرى
أرى الموتَ ممدودَ اليدينِ كمنقذ — لمثلى من غَرْقَى الحياة مسخّر
دعانى، ولو أنى على النفس مُشفق — مددتُ إليه الكفَّ لم أتأخر
أروسُ، أرى الماضى يُطيفُ خَياله — وتَعرِضُ لى أحلامُهُ فى التذكر
ذكرتُ بروما أربُعِى وملاعبى — وأين ضفافُ النيل من شطوتيبر؟
وأيامَ يَدعوننى الهوى فأُجيبه — وينفخُ فى البُوق المنادى فأنبرى
فتنتُ الغوانى بُرهةً وفتنّنى — ولكننى عن سُؤددٍ لم أقصر
فهمَّةُ قلبى فى شرابٍ وصَبوةٍ — وهمَّةُ نفسى فى عَلاء ومَفخر
أروسُ تواقفنا على كلِّ غمرةٍ — وكلِّ مجالٍ ثائرالنقْع أكدر
وفى مِهرجان الفاتحين وعُرسهم — وتحت لواء أو على عُودِ منبر
فمالتْ بنا الدنيا فصِرنا بموقفٍ — شديدٍ على الأبطال بالذل مُشعر
نرى الأرضَ فيه والسماء تناهتا — إلى فَلَكٍ نَحْسِ الجهاتِ مُسمّر
فكيف مُقامى يا أروسُ على الأذى — وصبرى على العيش الذليل المكدَّر!

أروس :

أجلْ قيصرُ اعتضْنا من العزّ ذِلّةً — ومن حِليةِ الأعلام عُطْلَ التنكّر
فهُنّا كأنقاض الحصون على الثرى — وضعنا عليه كالقنا المتكسّر

نَهِيمُ كأبناء السبيل وطالما ... أخَفْنا سبيلَ العاهِلِ المتكبِّ

ومامَنزِلُ الأبطال إلا رَحى الوَغى ... إذا هى دارتْ أو رِواقُ المعسك

أنطونيو : فماذا ترى أوروس ؟

أروس : رأيُك أوَّلُ ... وعندك تُرَجى نظْرة الصدق فانظ

لقد عِشتُ ظِلًّا لا أرى غيرَ ما ترى ... ولا خيرَ فى الرأى التَّبيع المُسيَّ

أنطونيو :

أروس، أنا الأعمى وأنت لى العصا ... فخُذْ بزِمام العاجز المتحيِّ

أروس :

أرى ما يراه العاجزون إذا جرى ... على النفس محتوم القضاء المقدَّ

أنطونيو :

وماذا يقولُ العاجِزون إذا ابتُلُوا ؟

أروس : يقولون حُكْمُ اللهِ يا نفسُ فاصبرى

أنطونيو :

أروسُ، يقومُ العاثرون وقلّما ... يُقالُ عِثارُ الكَوْكبِ المُتَغوِّر

أروسُ، ألم تفهمْ؟ هو الذلُّ فاشفِنى ... بِضَرْبةِ سَيْفٍ أو بِطَعنةِ خَنجَر

فإنك حرٌّ إن فعلتَ وفائز بسيفي وأثوابي ودرْعي ومِغْفَري

أوروس :

مَعاذَ خلالِ البرِّ مولاي ! أَعْفِني فليس يدي تَقْوَى ولا السيفُ يجترى

وأنت الذي لو بِيعَ بالروح وُدُّه وما لي سوى روحي تقدَّمت أشترى

لآلهة الرومان أشكوكَ قيصرى ظَلَمْتَ فلم تُنصِفْ وَلائى وتَقْدُر

أتجعلُ في الميزان حُبِّي وطاعتي وشَتَّى عُروضٍ من ثيابٍ وجَوْهر ؟

لقد جادلى بالسيف والدِّرع قيصر

[يطعن نفسه بخنجره] :

وُجِدتُ بأيام الحياة لقيصر

أنطونيو :

أوروسُ ، عفوًا قد ذهبتَ ضحيةً وجَنَى عليك تَرَدِّى الممقوتُ

فعلمتَ مني كيف يَجْبُنُ قيصرٌ وعلمتُ منك العبدُ كيف يموتُ

[يطعن أنطونيو نفسه فيخرّ على الأرض جريحا]

[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجى أفاعيه]

أنوبيس :

هلمَّ لكنْ بناتِ التلال وجِنَّ الخرائب منْ صَاخِرِ

تبدَّلَ من حولكنّ المكانُ وأينَ القِفارُ وأينَ الحُجَر



فعلمت مني كيف يجبن قيصر وعلمت منك العبد كيف يموت

(صفحة ٦٥)

يدُ العلم وهي حديديةٌ ... حوتكنّ من جنبات الحُفَر

وجاءت بكنّ إلى حُجرتي ... أُسارَى القوارير رهنَ الضَّرَر

أرابنيَ الناس في أمركنّ ... وصرتُ حديثهمُ والسَّمَر

وقيل أنو بيسُ حاوٍ تسيلُ ... إليه الأفاعي إذا ما صفَر

وما فِتنتي بجُلودٍ لكُنّ ... مُرَقَّشةٍ كإهاب النَّمِر

ولا بهيا كلَ مثلِ العِصِيّ ... من اللحم لا من فروع الشجر

ولا برءوس كَدِقِّ الحصا ... ولا بعيونٍ كوَقْدِ الشَّرَر

ولكن أزاولُ علم السموم ... وعلمُ السموم جليلُ الخَطَر

لقد كان لي في مُعاناته ... تجاريبُ أنفقتُ فيها العُمُر

إلى أن نجحتُ، نعم قد نجحتُ ... وعاقبة الصابرين الظَّفَر

فكم قد شفيتُ بطِبّي اللَّديـ ... ـغَ وأيقظتُ من نزعِه المُحتَضَر

فقيل إلهٌ أعاد الحياةَ ... إلى المَيْت أو خِذْنُ جِنٍّ سَحَر

صَنعتُ من السم ترياقَه ... وقد يختفي النفعُ تحت الضرر

وأنتُنّ والناسُ قد تلتقون ... ففيكُنّ شرٌّ وفي الناس شر

[تدخل حابي خادمة]

أنوبيس [مستمرًا] :

وتقتُلن عُمْىَ عيونَ السلاح ... وَيقتلُ قاتِلهُم عن بصر

لِسانُ ابنِ آدمَ أو نابكُنّ ... كلا السائِلين لعابُ القدر

حابى : سلامٌ أبتِ

أنوبيس : حابى ؟ ... سلامٌ لكَ يا حابى

حابى : أمشغولٌ أبى اليومَ ... بذات القَرْن والنابِ

وأنطونيوس مهزومٌ ... وأكتافيو على الباب

أنوبيس [باستخفاف وهو يشير إلى أفعى] :

حابى، تقهقر ناحيهْ ... تلك الحبيشةُ داهيهْ

[يتقهقر حابى قليلا بينما يلهو الكاهن أنوبيس بالحقاق والقوارير]

تلك القواريرُ وذى الحِقاقُ ... غَوْثٌ إلى مُستنجِدٍ يُساقُ

* لكل سُمٍّ عندها تِرياق *

أبتى، من للرَّعيَّهْ ... من لأوطانى الشقيهْ ؟

خَلِّ حيَّاتِك فى الأسـ ... ـفاط واشعُرْ بالرزِيَّه

بعد حين تملأ الوا ... دى الأفاعى البشريَّه

أبتى نحن من اليو ... م عبيدُ القيصريه

أَدنِ أُذْنيْك على قَدْ سهما من أُذُنيّهْ
واسمع البوقَ تَجِدْ مِن أحرُف الرقِّ دَوِيَّه

أنوبيس : حابي ، تقبّلْ هذه القِنِّينهْ وٱقبِضْ عليها بيدٍ ضنينهْ
فإنها ذخيرةٌ ثمينهْ !

حابي [لنفسه] :

يا لَلسماءِ لأبي ! تُراه يَسْتهزِئُ بي ؟
ويحَ له ، عساه جُنَّ أو لعله نبي
أوحتْ له السماءُ علم غَيْبِها المحجَّبِ
يَعلمُ من يُلدَغُ من رَقطاءَ أو مِن عقرب
لأحملَنَّ حُقَّه مثلَ تَميمةِ الصبي
يا لكَ شيخًا طيِّبًا يأتي بكل طيب !

[مخاطبا أنوبيس الكاهن] :

دِيعَ الحِمَى أبي فكيف للحِمَى لم تَغضَبِ ؟
دع الأفاعي واشتغِلْ بالأفعُوان الأجنبي
الوطنُ الملدوغ أوْلَى اليومَ بالمُطَبِّب

أنوبيس : وأين كنت يا فتى   وأين فِتيان الحِمَى ؟
وأين فُرسانُ المَقَا   ل هل مَضَوْا إلى الوغى ؟
أَدَرتُمُ وجوهَكم   ساعةَ دارتِ الرحى
تركتم أنطونيو   سَ وَحدَه يَلْقَى العِدا
من أجلكم سلّ الحُسا   مَ وإلى الحرب مشى
ما كان ضركم لو الْـ   ـتففتُمُ على اللِّوا ؟
أبعد أن حلّ على الـ   ـنيل وواديه القضا
ولم يجدْ من شيبهِ   ولا شبابهِ فِدا
أتيتَ تدعونى كما   تدعو العجائزُ السما
الرأْىُ ليس نافعًا   إذا أَوانُهُ مضى

[يدخل جند من حرس الملكة]

الجندى : مولاى ، ذاتُ الجلالة

أنوبيس : الملكةُ الآن عندى ؟

[تدخل كليوباتره فى حاشيتها]

كليوباتره : تحيةً يا أبتِ

أنوبيس : سيدتى فى حُجرتى

مُرِى بما شـئتِ يكنْ وإن تحـدَّى قُـدْرتى

كليو باترا :

أَبى ، أعلمتَ أن الجيشَ وَلَّى وأن بوارجى أبتِ المُضيَّا

أنوبيس :

علمتُ وكان ذلك فى حسابى وذا حابى بـه أفضى إليّـا

كليو باترا :

وهل نَبّاكَ عن أنطونيوس وكيف جرتْ هزيمتُه عليّـا

وما أدرى أأردوْه قتيـلا صباحَ اليوم أوأخذوه حيّا؟

أبى ذهبَ الحليفُ فكُنْ حليفى فقد أصبحت لا أجِدُ الوليّا

أبى خفتُ الحوادثَ

أنوبيس : لا تُراعِى لَباةُ النيـل ليس تخافُ شَيّا

كليو باترا :

أبى لا العزلَ خِفتُ ولا المنايا ولكن أن يَسيروا بى سَبِيّا

أيوطَأ بالمَناسِم تاجُ مصـرٍ وتَمّتَ شـعرةٌ فى مَفْرِقيّا؟

أنوبيس [بإستخفاف] :

لتأتِ المقـاديرُ أو فلْتـذَرْ تعـالىْ كلوبترا ألقِ النظرْ

كليوباترا :

أفاعٍ ؟ أبى ، نَحِّها ، أَخْفِها ؟ أعوذُ بإيزيسَ من كلِّ شرّ

فماذا تريدُ بإحرازهن وهل يقتني عاقلٌ ما يضر ؟

أنوبيس :

أُتيتُ بهنّ لدرس السُّموم ولم أَخْلُ فى علمها من نظر

أداوى بها أو بترياقها مُحِبَّ الحياة أو المنتحِر

كليوباترا [كأنما تحدث نفسها] :

محبِ الحياة أو المنتحِر!

كفى أيها الشيخُ ! بل هات زِدْ فما بىَ خوفٌ ولا بِى خَوَرْ

وإن تكُ بى خشيةٌ فى النساء فلى جُرْأةُ المَلِكات الكُبر

تكلّمْ فليست سمومُ الأراقـ ـم فى الخُبثِ دون سُموم البشر

فيارُبَّ صَفْوٍ سَقَيْتُ الرجالَ فلما تَرَوَّوْا سقَوْنى الكدر

أنوبيس :

قِصارٌ وهُنّ سهامُ المَنون وليس يَعيب السهامَ القِصَرْ

تَمَسُّ الفريسةَ مسّ السنان وتمضى مَضاءَ الحسام الذَّكَر

وكلُّ الذى لَمستْ مَقتَلٌ ولو أنشبت نابَها فى ظُفُر

إذا جَرَحَتْ لم تَقُمْ عن دمٍ كذلك يجرحُ سهمُ القدر

وماثُهـا لا يُحِسُّ المنـونَ كمَن مات فى النوم لا يُحتَضر

كليوباترا [مردّدة قوله فى صوت خافت] :

وماثُهـا لا يُحِسُّ المنـون كمن مات فى النوم لا يُحتضر!

ولكن أبى هل يُصانُ الجمال؟

أنوبيس : نعـم لا يحـولُ ولا ينـدثر

كليوباترا :

وهل يَطفَأُ اللون ؟

أنوبيس : لا بل يُضيء كما رفَّ بعد القِطاف الزَّهَر

كليوباترا :

وهل يُبطِلُ الموتُ سِحرَ الجفون ويُبلِي الفُتورَ ويُفنِي الحَوَرْ

أنوبيس :

كعهد العيون بطَيْف الكرى إذا الجَفـنُ ناء به فانكسر

كليوباترا :

أبى ، والشفاهُ؟

أنوبيس :

لـواقى الذُّبـول كما احتُضِر الأُقْحُوانُ النَّضِر

وما الموت أقسى عليها فمًـا ولا قُبْلةً من عوادى الكِبر

كليوباترا :

وما عَضةُ النـاب ؟

أنوبيس :

وَخـــزٌ أخــفُّ وأهونُ من وَخزات الإبر

كليوباترا :

وما شَـبَحُ الموت ؟

أنوبيس :

ماذا أقـــولُ ؟

كليوباترا : تُمَثّلُهُ لى كأنْ قد حَضَر

أنوبيس :

زعمتِ ابنتى الموتَ شخصًا يُحَسّ وعَظَّمتِ من خَطْبه ما صَغُر

وما هو إلّا انطفاءُ الحياةِ وَعصْفُ الردَى بسراج العُمُر

وليس له صُـورةٌ فى العيون على قُبْـح صُورته فى الفِـكَر

إذا جاء كان بَغيضَ الوجوه وإن جِىءَ كان حبيبَ الصُّوَر

كليوباترا :

إذن هــذه الرُّقْطُ فى ذمـتى فصُنْها وأحسِنْ عليها السهر

وأقسمْ لتأتِ إلىّ بهنّ ولو أن دونى الظُّبا والسُّمُر

أنوبيس :

يمينًا بإيزيسَ أحملُهن إليك ولو فى سِلال الخُضَر
إذا بات فى خطر تاجُ مِصـ ـرَ سبقتُ إليك بهنّ الخطر

كليوباترا :

أ تجعلُ لى يا أبىَ آيةً أميزُ الرسولَ بها إن حضر؟

أنوبيس :

هو التين أبعثُ حابى به وبالرُّقط بين غُضون الثمر

***

ابنتى ذلك محرا بى ادخليه للصَّلاهْ
واسكُبى الدمعَ عسى أن يَقبَلَ الدمعَ الإله
هو ذو المُلكِ الذى يبـ ـقى ويفنى ما سواه

[خارج الهيكل — ثلاثة جنود رومانية]

الجندى الأول : تحيا روما يحيا قيصرْ
الجندى الثانى : روما العُظمى أبدا تنصَرْ
الجندى الثالث : ما ذاك؟ مافوق الطريق؟ ما أرى ؟
ميلا رفيقىَّ معى لننظرا

الأول : هناك مقتولان ضَرَّجا الثرى

الثانى : نعم أرى ثَمَّ دما وخنجرا

وهيكلين من حياةٍ أقفرا

الثالث : جُبِتَارُ يا مُصرِّفَ الحروب بارِكْ لنا فى هذه الجيوب !

وابعثْ لنا بالذهب المحبوبِ

الأول : يا عَجَبَ الأقدار ! أنطونيوسُ ؟

الثانى : أنطونيو ! أَجلْ وذا أوروس !

وأحسَب السيدَ مات بيدهْ ثم حذا العبدُ مثالَ سيّدهْ

لهفى على أنطونيو فى مرقدهْ

[يئن أنطونيو ثم يحرك رأسه و يتبين الجنود]

أنطونيو :

ويحى أخىَّ أنا جريحٌ ؟ ما ذا يُريدُ القضاءُ ما ذا

جنودُ أكتاف أدركونى يا ليتنى مِتُّ قبل هذا

جندى :

لا بل جنودُك لكن خانوك حُبًّا لروما

آخر : وما نَسُوك عليهم تحت اللواء زعيما

ترمى بهم مَطالعَ الشمـ ـس أو تَـؤُمُّ النجوما

أنطونيو :

يا جنودى وصحابى ليس ذا وقتَ العتاب
اتركونى وعذابى

[يغمى عليه]

جندى :

لَهفى عليه عاده الإغماء وأوشكتْ تَنزِفُه الدماء
وليس إسعافٌ وليس ماءُ

آخر :

هَلُمّا احملاه هَلُمّا احملا وجيئا بمولا كما الهيكلا
وأمضِى فأُبلِغُ أكتافيوا الـ حديثَ أعرِّفُه المنزلا

[فى حجرة الكاهن — كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا :

أبى دخلتُ ونفسى حيْرَى الزِّمام حزينهْ
وقد تركتُ المُصلَّى وملءُ قلبي سكينه
إن الصَّلاةَ على شدّ ة الزمان معينه

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا :

ما تسمعون أصيخوا شَرٌّ وهذا بَريدُهْ

كانَ الضجيجُ بعيدًا والآنَ يدنو بعيدُه

حابي :

أسمعتم ! ضجةٌ صاخبةٌ وجريحٌ وجُنودٌ فى الطريقْ

هاهمُ قد دخلوا الدار به

أنوبيس : دارُنا الشاطئُ لا يأبَى الغريق

حابي :

ها همُ قد حضروا

أنوبيس : يا مرحبًا أَعدُوًّا كان أم كانَ الصديق

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليوباترا :

ويحَ عيني ماذا ترى؟ ومن المحـ ـمولُ كالسيف فى الأَكفِّ خضيبا

أيهـا الجنـدُ ما بأيديكمُ اليـو م ؟

جندى : جريحٌ على الطريق أصيبا

كليوباترا :

أفتدرون مَن حملتم؟

جندى : حملنا هيكلا عزَّ فى الرجال ضريبا

قد عرفناه خيرَ من هزّ رمحًا ونضا صارما ولاقى الحُروبا

[تتأمل كليوباترا فى وجه الجريح]

كليوباترا :

آه أنطونيو ! حبيبي　　أدركونى بطبيب
ماترون الأرض تروى　　من دم الليث الصبيب
أبتى ، أين قوى طبـ　　ـك والسحر العجيب
هو فى إغماءة الجر　　ح فنبهه بطيب
هو ذا يفتح عينيـ　　ـه ويصغى لنحيبى

أنوبيس [محاولا إسعاف الجريح] :

تلك أنفاسه توالى وهذا　　جسمه لايزال غضا رطيبا
هو ذا قد تخلجت شفتاه　　وتهيا لسانه ليثوبا
أيها الملكة ارفقى بجريح　　بات تحت الرداء جرحا صبيبا
لاتناديه بالدموع مرارا　　ربما ضرجرحه أن يجيبا

أنطونيو :

كيلبترا ! عجب ! أنت هنا !　　لم تموتى... هم إذن قد كذبون

كليوباترا :

سيدى روحى حياتى قيصرى　　أنت حى؟

أنطونيو :　　بعد حين لا أكون



آه أنطونيو حبيبي . أدركوني بطبيب

(صفحة ٧٩)

كليوباترا :

من نَعانى كَذبا ! من قالها لك !

أنطونيو :

مَــرَّ فاســتوقفتُــه أَسألُه — أُولمبوسُ النــذلُ الخَــؤون
قال ماتتْ فتجرَّعتُ المَنونْ

* * *

كليوباترا زوّديني قُبــلةً — من ثنايالِكِ العِذابِ الشَّمِاتْ
وأضــيئى بسَــناها مُقــلةً — يُسْدِلُ الموتُ عليها الظُّلُماتْ
سيقولُ النــاسُ عنى فى غد — من أُولِى الرحمةِ أَوأَهلِ الشَّماتْ :
بَطَــلٌ لم تَظفَرِ الحــربُ به — فى الهوى تحت لِواءِ الحب ماتْ

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قــد تَداعى مِحْــوَرُ الأر — ض وميزانُ الشــعوبِ
مال كــالشمس جمــالًا — وجــلالا فى الغــروب
أيهــا المجــروحُ لــو تــد — رى جُــروحى ونُــدوبى
أَيهــا الذاهبُ قــد آ — ن عن الدنيــا ذُهــوبى
أَيهــا الخــالِــصُ وُدًّا — ليس وُدّى بالمَشــوب
أَيهــا الصــادقُ وعــدًا — ليس وعدى بالكَذوب

عن قريب ينطوى القبـ ـرُ علينا عن قريب
كلِّلوه بالرياحيـ ـن وبالغار الرطيب
واهتِفوا فى أُذنيْه بأناشيد الحروب

* * *

واحبيباه ، جاءه الموت فاستسْـ ـلم لا يستطيع إلّا ذهوبا
كان ما خفتُ أن يكون وحلّتْ نَكبة لم تفاجئ المنكوبا

[تستوى قائمة]

أيها الجندُ مات قيصرُ فابكوا معيَ السيدَ الجسورَ الوهوبا
شبّكوا ساعديْه من فوق صدر كان فى الرَّوْع بالمنايا رحيبا
واعرِضوا سيفَه على راحتيْه وارِكزوا الرمحَ من يديْه قريبا
لا بل امضوا لشأنكم جُندَ روما ودَعونى وسيفَ روما السّليبا
أنا وحدى له ديارٌ وأهلٌ إن دعا دارَه ونادى النّسيبا

[ينسحب الجنود]

ويحَ لى قد طلبتُ عند طباع النـ ـاس ما عزّ عندهم مطلوبا
خَلَق الناسُ للقَوىِّ المزايا وتجنّوا على الضعيف الذنوبا
واحتفوْا فى الحياة والموت بالغا لب فانظُرْ هل عظّموا مغلوبا
شيّعوا الشاةَ جِيفةً بمُداهم واتّقوْا وهْو فى الرِّمام الذّيبا

أنوبيس :

الوقارَ الوقارَ يا لَبْأَةَ النيـ ـل ولا تجعلى الزئيرَ النحيبا
وقِفى للخُطوب فى عِزّة المُلْـ ـك وفى كِبْرِه تُذِلّى الخطوبا

[يدخل جندى من جنود أكتافيوس]

الجندى :

قيصــر أكــتافيوسُ آتى يعــودُ أنطونيوسَ قيصــرْ

كليو باترا :

قيصر ! فــرّ الأســير منــه مَن فى حمى الموت ليس يُؤسر

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس :

ســلامٌ مَلِكةَ الــوادى ســلامٌ كاهنَ المُــلْكِ
يقــولُ النــاسُ أنطــونيو هنــا لــم يبتعِــدْ عنــك

كليو باترا :

نعــم لــم نَفــترقْ بعـــد وإن أمعــن فى تركــى
وهـــذا الجســد الفــانى جَـــلاءُ الرَّيب والشــك

أكتافيوس :

إذن قد قُضِىَ الأمرُ وصار الليثُ للهُلْك
كلوباترةُ لا تَخشَىْ فلن آخذه مِنك!

كليوباترا :

أَبِى تَهزأُ أم بالمَيْـ ـتِ أم بالموقف الضَّنك
إن استطَعتَ على مالـ ـك من بَطش ومن فَتك
وما حَوْلك من خيل وما تحتك من فُلْك
نخُذه من يد الموت ومن عاجزةٍ تبكى!

[يدنو جندى من جنود أكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مكانَك يا عبدُ لا تَهتِكنْ على سيد الهالكين القِناعْ
تُريد لتَكشِفَ عنه الغطاءَ عسى تحته حيلةٌ أو خداع
عَبَثْتَ به وهو تحت الطِّيالـ ـس مُلْقِ السلاح قليلَ الدفاع
ولم تَحتشمْ بُقَعًا من دم عليهنّ تَحسُدُ مصرَ البِقاع
رُوَيْدَك، ما الموتُ مُستبعَدٌ ولا هو مستغرَبٌ من شجاع
وإنَّ التماوتَ فعلُ الثعالـ ـب ليس التماوتُ فعلَ السباع

أكتافيو :

أناتَيكِ سيدتى إنه فتى طاهرُ القلب حرُّ الطباع
أراد ليحتاطَ لى جُهدَه ويُخلصَ فى خدمتى ما استطاع
تَنَحَّ أخا الجند ما أنت والميـ ـتَ! الاَيقربُ الشمسَ إلا الشُّعاع!
أتأذنُ سيدتى أن أطيـ ـفَ بخِدنِ الصِّدام رفيقِ الصِّراع؟
ومن كنتُ تحت القنا ظِلَّه ومن كان ظِلّىَ تحت الشِّراع
وكنا نَشيد لروما الفَخارَ ونَجْنى لها الغارَ من كل قاع
ونأتى القِلاعَ فنحتلها وإن بعُدَتْ كالنجوم القلاع
ونَرِكُزُ فى السهل أرْماحَ روما ونُطلِعُ أعلامَها فى اليَفاع؟
بإذنك؟

كليو باترا :

قيصرُ لا إذنَ لى أينهى ويأمر من لا يطاع؟
تصرَّف بجُثمانِه كيف شئـ ـتَ فليس له اليومَ منك امتناع
وما جُثَّةُ الليث إلا لَقىً إذا النابُ طاحت أو الظُّفْرُ ضاع؟

[يتقدم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس :

لقــد حسَم الموتُ ما بيننــا وغَضَّ اللَّجاجَ وفَضّ الـنزاع
فمن حَــقِّ اليــومَ بل واجبٌ على أُقَدِّسَـــهُ أنْ يُضــاع
أُقَبِّــلُ ما قَبَّــل الغــارُ منــ ـك وأهتفُ : أنطونيوسُ الوَداع

[ســـتار]

الفصل الرابع

« فى القصر الملكى ، فى غرفة العرش ، شرفة مطلة على »
« البحر . كليوباترا متكئة على حافة الشرفة ، شرميون »
« وهيلانة فى أقصى الحجرة تنهمر من عينيهما الدموع »

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

نام « مَرْكُو » ولم أنَمْ ... وتَفَرَّدتُ بالألَمْ
ليت جُرْحى بجُرحه ... لَقِيَ الموتَ فالتأم
قاتَلَ اللهُ ماضياً ... قَتَل المُفرَدَ العَلَمَ
أنطوانُ انفُضِ الكرى ... ساعةً وانقُلِ القَدَم
قُمْ كأمسِ اغنَمَ الهوى ... واشربِ الراحَ بالنَّغم
وتَخَيَّرْ على المُنَى ... وتَمَتَّعْ من النِّعم
واغمرِ الأرضَ بالقنا ... وتَغَلَّبْ على الأمم
وقُدِ الخيلَ فى الوِها ... د ووثباً إلى القِمَم
أيها العينُ أبصِرى ... إنما كنتِ فى حُلُمْ!

[ملتفتة الى شرميون] :

يا شرميون بلغنا مَوْقِفاً حَرَجا ... لا الرأىُ ينفعنا فيه ولا الباسُ
لم يَبقَ ثقبُ رجاء كنت ألمحُه ... إلّا تعرّضَ حتى سدَّه الياسُ

[تلقى نظرة على الإسكندرية من الشرفة]

نجمي يُحدِّثني بوشك أفوله ... إسكندريةُ، هل أقولُ وَداعا؟
وَشّيْتُ بَرّكِ جدولًا وخميلةً ... وكسوْتُ بحرَكِ عُدّةً وشراعا
وأنا اللَّباةُ وقد ملأتُكِ غابةً ... وأنا المَهاةُ وقد ملأتُكِ قاعا
قد خِفتُ من بعدي عليكِ ممالكا ... يُطلِقْن فيكِ الفاتحين سِباعا
يأتين زرعَكِ بالرّياح عواصفًا ... ويجئن ضَرعَكِ بالذئاب جياعا
فإذا الحضارةُ بعد طول بنائها ... قد دُكَّ رُكنُ بنائها وتداعى

شرميون :

بإيزيسَ سيدتي بالوَلاء ... بطول التعاشر والمُصطحَبْ
بما لي ببابكِ من خدمة ... ومن صُحبةٍ تُشبهان النَّسب
على أي وجه أدرْتِ المصيرَ ... وقلّبتِ رأيكِ في المُنقلَب؟
فهذا السكونُ يُثيرُ الشكوكَ ... وهذا الهدوءُ يثيرُ الرِّيَب
وماذا اعتزمتِ؟ وماذا كتمت؟ ... أبيني فما بيننا من حُجُب
ولي في حياتِكِ رأيٌ يُساقُ ... وليس عليَّ إذا لم يُصِب

كليوباترا :

إذن فاذكري أن خصمي العتيد ... يخافُ انتحاري ويخشى الهربْ
وليس الذي يشتهي لي الحياةَ ... ولكن له في حياتي أرَب

له فى غـد موكبُ الفاتحيـ ... ن إذا أقبلوا فى جلال الغَلَب
يَجُرُّون فى رومـةَ الأُرجوانَ ... وقد بَرَزتْ فى الثياب القُشُب
وتزدانُ بالغـار هاماتُهـم ... إذا ارتفعت فى الخميس اللَّجِب
يُحاولُ قيصـرُ منى المُحالَ ... ويذهب فى غير وجه الطلب
يُريـدُ ليَعرضَنى فى غـد ... على شعب روما كأنى سَلَب
ويفضحُ مصـر وسلطانَها ... وتاجَ العصور وعرشَ الحقَب
لقد ساء تدبيرُ أكتافيوسَ ... ولم يَلقَ من خُدعتى ما أحب!

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراء الباب ؟

شرميون :

حسٌّ قادم

هيلانة :

أجلْ دبيبُ حارس أو خادم

كليوباترا :

بل حارسٌ جافٍ ... من حَرَس القصر
مُعـربِدُ الخَطـو ... من نشـوة النصر
لا تسـعُ الأرض ... رِجليهِ من كِبْر

شرميون :

مَلْكتي دعى هذه الفِكَرْ
جندُ رُومةٍ يَعبُدُ البدَرْ
فى سبيلها يركبُ الغَرَرْ

كليوباترا :

شرميون صَهْ إنه حضَرْ

[يدخل حارس]

الملكة : ماذا وراء الجندى ؟

الحارس : رسالة من عبد

هل تأذنين ؟

الملكة : أدِّ

الحارس : أيها المَلِكَةُ قد جا ءَ إلى القصر غلامْ
فى ثياب الحقل حُلوُ الـ ـشكل ممشوق القوام
جادل الحُرَّاسَ فى حذ ق ورفق بالكلام
يَدَّعى أن أباه كان عبدًا للمَقام
ناله بستانُ تين من أياديك الجسام

فهْو يهْدى لك باكو رتَه فى كل عام

الملكة [هامسة] :

شرميونُ ذاك حابى وجَناه فى يمينهْ
جاءَ فى الميقات يُهدى لىَ باكورةَ تينه

[للحارس]

ألا تَقْبَلُ يا حار س منى هذه البَدْره ؟

الحارس : بشكران وهيهات على الشكرانِ لى قُدْره

الملكة : والآن اوتُحْضِرُ لى الفلاحا لعله يُحدث لى انشراحا

إنى نسيت البَسطَ والمزاحا

الحارس : علىّ السمع والطاعه سآتيك به الساعه

[يخرج الحارس]

الملكة : يا شرميونُ تعلّمى الدنيا ويا هيلانةُ اختبرى الزمانَ القاسى
إن التى حُرستْ بأبطال الوغى باتت تُصانُ بسفْلَةَ الحراس

[يدخل حابى فى ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانة [همسا] :

حابى نعم وتلك نظرتهْ وهذه مشيَتُه وخَطرتُه

يا ليت شعرى ما تكون سَلّتُهْ ؟

حابى : تحيــةٌ للمَــلِكهْ ونعمَــةٌ وبَرَكهْ
ونفسُ عبــدها لهــا وكلُّ ما قــد ملكه
ســيدتى جئت إلى بحـرك أُهــدى سمكه
أحِمـلُ تينـا ولـو اس تطعتُ حملت مملكه

حابى : ســيدتى

الملكة : أُدنُ فإنــه ابتعــدْ وقُلْ فما يسمعُ غيرنا أحدْ

حابى : سـيدتى

الملكة : حابى ، أنوبيسُ اجتَهَدْ لنا وأنجز الغــداة ما وعدْ !
يُريدُ أن يَشفيَنى مما أجد وأن يَقى مملكتى عارَ الأبد
جئتَ كما يأتى لوقتــه المَــدد
وَفَيْتَ لى حابى ولم تكنْ تَـفى ضع السِّلالَ وانصرفْ لا بل قفـ
حتى ترى كيف يكونُ موقِفى

[تلقى نظرة على السلال]

ما لى مُلئتُ من المنيَّــة رهبــةً إنَّ المنيــةَ فى رقاب النــاس
آسى الجراح جَزِعتُ عند لقائه والنفسُ تجــزَعُ من لقاء الآسى

إنى طويتُ بِساطَ كل مُدامة لم يبقَ إلاشربُ هذى الكاس
يا خادمىّ بل ابنتىّ تلطفا فى البحث حتى تأتيا بأياس
فعسى يُغنّينى نشيدَ الموت أو نغما أجود عليه بالأنفاس

شرميون :

مَلْكتى نادى أياسا إنه بالقُرب منكِ
هو فى المقصورة الأخـ ـرى مع الباكين يبكى
فكْره فيكِ ولا يَجـ ـسر أن يَسألَ عنك

الملكة :

ياوَيحَ صَحبى بَعد طول سرورهم قعدوا إلى أحزانهم يبكونا
جيئى بهم يا شرميونُ لينظروا جَلَدى فيَهدأ بعضُ ما يَجدونا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تحنى على زنبقة فى أصيص] :

زَنبقةٌ فى الآنيهْ ضحيةُ الأنانيهْ
جَنتْ عليها غُربةَ الـ ـأسر الأكُفُّ الجانيهْ
وبُدِّلتْ من سَعة الـ ـرَّبْوة ضيقَ الباطيه
يَسقونها من جَرَّة بعد العيون الجاريه

يا جارتا شأنك لا يُشْبِهُ إلا شانيه
لم يبق من مُلكي العريـ ـض غيرُ دار خاويه
وكلُّنا ذابلةٌ عما قليل ذاويه
زال النعيم وفرغـ ـنا من حياة فانيه

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنشو وغيرهم]

الملكة [الى أنشو]:

أنشو يعزُّ عليَّ أنك ساهمٌ يبدو عليك الهمُّ والتفكيرُ
أنشو ألا قولٌ يسرُّ وضحكةٌ إن السعيدَ الضاحكُ المسرورُ
قد كان أيسرُ ما صنعت يسرني أعلَيَّ سروري اليوم أنت قدير؟

أنشو : سيدتي جرى بما فيه سرورُكِ القدرْ
من لا تسرُّه السما ءُ لا يسره البشرْ

الملكة : أياسُ، هل من صوتٍ؟ غَنِ نشيدَ الموت

[أياس يغني هذا النشيد]

يا طيبَ وادي العدَمْ من منزل من منزل
لم تَمش فيه قدمْ للعُزَّلِ وادٍ خَلِ
أنا فيه لحبيبي وحبيبي فيه لي

***

يا موتُ مِلْ بالشِّراعْ واحمِلْ جَريحَ الحياهْ
سِرْ بالقلوعِ السِّراعْ إلى شُطوطِ النجاه

***

شِراعُك الفِضّى فى لُجّه التِّبْرى
كالحُلْمِ فى الغَمْضِ يجرى ولا يجرى

***

فى ظلِّ ليلٍ ساجْ أقسم لا يَسرى
مُظلَّلِ الديباجْ مُطيَّبِ السِّتر

***

فى يقظةٍ يَظهرْ لى أم أرى حُلُمَا
فُلْكٌ من الجوهرِ يَخترِقُ الظُّلَما

***

على الدجى لمَّاح تحسَبُهُ نجما
ليس به ملّاح يسلُكه اليمّا

***

أضْوَى من الفجرِ فى ظُلمة الأسداف
من نفسه يجرى لم يُجرِه مِجداف

***

مَـدّ شِـراعَ النـورْ يا حُسنَ ما مـدّا
كاللـؤلـؤ المنثـور لـو ينفَـحُ النَّـدّا

***

يـا لكَ من زورقْ مَـلاّحُه الأقـدارْ
ينجـو بـه المُغـرَقْ من لُجّةِ الأكدار

[يدخل الحارس]

الملكة : ما وراء الحارس؟

الحارس : الطا عة ياذاتَ الجـلالهْ
قائـد يحمِـلُ من قيـ ـصـرَ أكتافو رسالهْ

الملكة : أدخـله ، أدخـلْ رسـولَ قيصـرْ

[يخرج الحارس و يدخل القائد]

القائد : قيصرُ العـالى إلى سـ ـيـ ـدتى يُهـدى التحيهْ
هـو فى الثُّكنة بالقر ب من الدار السنيـه
يُظهِـرُ العَطفَ عليها وهى بالعَطف حَرِيّه
و يقولُ الأمرُ ما تأ مُرُ فى الاسكندريه
ولهـا الوادى وما يحـ ـمِـلُ مُلْكا ورعيّـه

وبنوها يَرِثونَ الـ ـمُلكَ من روما الوصيه
وإذا حَلّتْ بروما وجدت روما حَفيّه
لتلاقّاها كأغلى درة فى القيصريه
ما الذى تقترحُ المُلـ ـكةُ ما تُملِي عَلَيّه
لِتقلْ سيدتى حا جتَها تُقْضَ العشِيّه

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

وإذا حلت بروما وجدت روما حفيه !
لتلاقاها كأغلى درة فى القيصريه !
[تضحك فى تهكم وألم]

أيها القائدُ أدّيْـ ـتَ فأحسنتَ الأداءْ
بَلّغنْ قيصرعنى كلَّ شكر ودُعاء
ثم زِدْ أمنيةً قد بَقِيَتْ لى ورجاء
أنا لا أكتُمُه ما سَرّ من أمرى وساء
لِيَ سرٌّ كاد عن نفـ ـسِىَ يَزوِيه الخفاء
صُنته عن صاحباتى وصحابى الأمناء

حبــذا لــو زارنى قيـ ـصرٌ فى هــذا المساء
وله الشكــرُ إذا لم يأتِ أو إن هــو جاء

القــائد :

سأذكرُ مولاتى لمولاىَ قيصرٍ وأنقُلُ ما أبديتِ من رَغَبَات
ولِمْ لا يُلبِّى دعوةَ الحسن طائعاً ويسعى له مُستعجِلَ الخطوات؟
وقد كان يوليوسُ يقومُ ببابه ويَمْثُلُ أنطونيوسُ فى العتَبَات!

كليوباترا [بعظمة] :

أسأتَ أخا الرومان فهم إشارتى

القــائد :

إذن فَهِىَ لى تلك من هفَواتى

[يخرج القــائد]

كليوباترا :

أرانىَ لم يُحسِنْ إلىَّ مُعاصرى ولم أَجِدِ الإنصافَ عند لِداتى
فكيف إذا ماغيبَ الموتُ ذَادتى وبَدَّد أنصارى وفَضَّ حُماتى!
كأنىَ بعدى بالأحاديث سُلِّطت على سيرتى أو وُكِّلتْ بحيــاتى
وبالجيل بعد الجيل يَروى زخارفاً فمن زور أخبــار وإفك رُواة
يقولون أُنثى أفنتِ العمرَ بالهوى بهيميّــة اللــذات والشهوات

فِـدًا لغرامى بالرجال وحُسنِهم غرامُ الغوانى أو هوى الملِكات
فليس الغلامُ البارعُ الحسنِ فتنتى ولا الرائعُ الأجلاد والعضَلات
ولم يَستَثِرْ وَجدى من الروم فتيةٌ جُنون العــذارى فتنةُ الخفَرات
ولا كلُّ غصن من بنى مصرَ مائلٍ يَطــيرُ إليــه قلبُ كل فتــاة
يموتون بى عشقًا و يَشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى وممــات
ولكن عشِقتُ العبقريّةَ طِفــلةً وفى الغافلات البُلْهِ من سنواتى
كلِفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه وحيزتْ له الدنيا من الجنَبات
إذا هب من غرب البلاد تلفّتتْ بلادٌ بأقصى الشرق منذعرات
تعــثّرَ حظى بعــد طول سلامة وأقلع نجمى بعــد طول ثبــات
ومن يَمش فى وَرد الأمور وشَوكها يَعُــدَّ الخُطا أو يحسِبِ العثرات

[تنظر إلى السلال]

يا مرحبــا بالسَّــلَّهْ والــرُّقُبِ المُطِــلَّهْ
الكافيــاتى الــذِّلَّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابى]

كليو باترا :

أدخلى بى يا شرميون على طِفْـ ـلى؟ أُودِّعْهمُ الـوَداع الرهيبــا

فعساهم إذا تحجّب صدرى وجدوا صدرَك الحَفِىَّ الرحيبا

[لحابى وهيلانة] :

ولدىَّ أهجروا القصورَ فإنى قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجةٌ وفيها فُضولٌ يُرهِقُ الحبّ واشيا ورقيبا
خلِّيا عنكما المدائنَ يا بنْتَ فضوْضاؤها تُميت القلوبا
إن لى فى سهول طيبةَ حقلا طيبَ الماء والهواء خصيبا
غَرسته يد الشباب فأضحى وارفا كالشباب حُسنًا وطِيبا
ألَّفَ الحبُّ من نواحيه أيكا جمع الطيرَ هاتفا ومُجيبا
يُسمِعُ البُلْبُلُ العشيقةَ فيه وتُغنِّى الأليفةُ العَنْدليبا
أُفُقٌ لا يُظِلُّ إلا مُحِبًّا وثرى لا يُقِلُّ إلا حبيبا
اشربا من كرومه واسقياها صافىَ الحب والهوى المسكوبا
والعبا عند كلّ ماء غدير تريا الماءِ للحَبابِ لعيبا
وسلا الوردَ هل تنفَّسَ فى الورد وهل ناسم البعيدُ القريبا
أدرِكا لذةَ الشروق ولمّا تبلغ الشمسُ بالحياة الغروبا

[تخرج كليو باترا وشرميون]

حابى :

هيلانُ ، هذا مقالُ النصحِ من مَلكٍ فما تَرَيْن وما تَنْوِين هيلانا
هلُمّ طِيبةَ ننزلْ فى حما ألهها ونَبْنِ مِثلَ بناء الطير دُنيانا
كطائرَيْن على بحرٍ وعاصفةٍ قد آنسا من وراء الشّط بستانا
تداركَتْنا أبرُّ المالكات بهِ وأشرفُ الناس إحساسًا ووِجدانا

هيلانة :

حابى ، عرفتَ الخلالَ الطيّبات لها وكنتَ أمس أقلّ الناس عِرفانا

حابى :

خلِّ الجفاءَ حياتى إن ساعتَه مضتْ وهذا أوانُ السِّلم قد آنا
اللهُ يشهدُ أنى قد سدلتُ على ما كان من نَزَعات الرأى نسيانا
وأننى اليوم أبكيها وأنْدُبها ولا أقيسُ بها فى الطهر إنسانا
اليوم ضحّتْ وزَكّاها الفداءُ كما زَكّى المُقرِّبُ باسم الله قُربانا

هيلانة :

إن التى شبَّ فى نَعمائها صِغَرى ونبّهتْ لى سُلطانها شانا
إن لم أمُتْ دونها أو لم أمت معها فما جَزَيْتُ عن الإحسان إحسانا

حابى :

والحبُ هيلانَ؟ ماذا تصنعين به

هيلانة : إن الصداقة فوق الحب أحيانا

حابى أراهـا أزْمَعـتْ وأرى الفجيعةَ واقعـهْ

فاذهبْ بِجَئْ بأنوبِس فعسى يـردُّ الفاجعـه

حابى : وسـواءٌ أردّهـا أم أبى ذلك القـدر

فى غـدٍ أيهـا المـلا كُ الى طيبـةَ السـفر

[يخرج حابى]

هيلانة : ويح حابى اعتـقادُهُ أن سأحيا فنلتـقى

ليـتنى نِلْـتُ قُبـلةً منـه قبـل التفـرُّق

[تدخل كليو باترا وفى أثرها شرميون]

كليو باترا :

بروحى وإن لم تَبْـقَ منى بقيّـةٌ صـغارٌ ورائى ذُوّقُ اليُـتْمِ نُوّحُ

أذوبُ لبـلواهـم وأعـلمُ أننى حَمَلتُ عليهـم ما يَجِـلُّ ويَفدحُ

وقد أشتهى عيشَ الذليل لأجلهم فلا المجدُ يرضى لى ولا النُبلُ يَسمَحُ

فصفحًا صغارى إن شَقِيتُمْ بمصرعى وإنى لأرجو أن تَغضّوا وتصفحوا

وَداعا صغارى صَيّرَ الله يُتمَكم إلى خير ما يكفى اليتامى ويُصلِح
أطفتُ بكم والنومُ تَسرى سِناتُه على صفَحات كالأهِلَّة تَلمَح
وما منكمُ فى الحِزّ إلّا حمامةَ عليها طليلٌ ناعمَ الفَرْعِ أفيَح
تنامُ وما تدرى الكرى ما وراءَه ولا الصبحُ فى ظلّ الرُّبا كيف يُصبح
أتغدوا على الدنيا كأمسِ طليقةً ضُحى اليوم أم يُغدَى عليها فتُذبَح؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون] :

فيم هيلانةُ تبكيـن وأنت شرميون
كفكفا الدمعَ فلا شدّة إلّا وتهون
واعلما بِنتىَّ أن البؤسَ والنعمى دُيون

[تركع أمام تمثال إيزيس]

اليومَ أقصرَ باطلى وضلالى وخلتْ كأحلام الكرى آمالى
وصحوتُ من لَعِب الحياة ولهوها فوجدتُ للدنيا خُمَارَ زوال
وتلفّتتْ عينى فلا بمواكبى بُصرتْ ولا بكتائبى ورجالى
وطِئتْ بِساطى الحادثاتُ وأهرقتْ كأسى وفضّتْ سامرى ونِقالى
إِزيسُ ينبوع الحنان تعطّفى وتلقّى لضراعتى وسؤالى
أنت التى بكت الأَحبّةَ واشتكت قبل الأرامل لوْعَة الإرمال
إنى وقعتُ على رحابكِ فارحمى ذلَّ المُلوك لمجدك المُتعالى

هل تأذنين بأنْ أُعجِّل نُقْلتي وأَحُثَّ عن دار الشقاء رِحالى
وعُلاكِ ما أدعُ الحياةَ جبانةً أو ضِيقَ ذَرْعٍ أو قطيعةَ قالى
إنى انتفعْتُ بعبقرىِّ جمالها وتمتعتْ من عبقرىِّ جمالى
وجمعتُ بين شعورها وعواطفى وقَرَنْتُ رَحْبَ خيالها بخيالى
ووجدتُها قد خلّدتْ أبطالَها فبسطْتُ سلطانى على الأبطال
بنتُ الحياة أنا وتشهدُ سيرتى ما كنتُ من أمى سوى تمثال
منها تناولتُ الرِّياءَ وِراثةً وأخذتُ كلَّ خديعة ومِحال
وقسوْتُ قسوتَها ولِنتُ كلِينها واقتستُ فى صَدّى بها ووِصالى
ولربما رَشَدتْ فسِرتُ بُرشدها وغَوَتْ فأغوتْنى وضل ضلالى
ووجدتُها حبًّا يَفيضُ ولذةً فجعلتُ لَذّاتِ الهوى أشغالى
يومى بأيامٍ لكثرة ما مشت فيه الحياة وليلتى بليالى
ولقد لَقِيت من الحياة صَبيّةً ما جل من بؤس ورقة حال
فخلعتُ مُلكى طفلةً وشَردتُ فى صدر الصبا ورأى المَكارهَ آلى
شرعتْ علىّ السوطَ فى كُتّابها واليومَ تَضربُنى بدرس غالى
ياموتُ هل حَرَجٌ على مُستنجِد بك أنْ يُسابقَ واقعَ الآجال ؟

يومي أعجّله ولو لم أنتحر للقيتُ يومًا ماله من تالى
ياموتُ أنت أحبُّ أسرًا فاسبِنى لا تُعطِ روما والشيوخ عِقالى
ياموتُ لا تُطفِئْ بشاشة هيكلى واحفظْ ظواهرَ لمحتى وجلالى
ياموتُ طُفْ بالروح واسرقْها كما سرق الكرى عينَ الخلىّ السالى
حتى أَموتَ كما حَييتُ كأننى بيتُ الخيال ودُميةُ المَثّال
وكأن إغماضَ الجفون تناعسٌ وكأن رقدتىَ اضطجاعُ دلال
سِرْبى الى أنطونيو فى نَصرتى ورُواء جلبابى و زينة حالى

[تقوم الى إحدى السلال وتكشف التين عن أفعى] :

هَلُمِّى الآن مُنقِذتى هَلمّى وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شَرَبتُ السمّ من فيكِ المُفدَّى بسلطانى و زِدتُ عليه مالى
على نابيْك من زُرق المنايا شفاءُ النفس من سُود الليالى
و بعضُ السم تِرْياقٌ لبعض وقد يَشفى العُضَالُ من العُضال
دعوتُ الراحةَ الكبرى فلبتْ فبُعدًا للحياة وللنِّضَال
هَلُمِّى عانقى أفعى قصور بها شوقٌ الى أفعى التلال
سَطتْ روما على مُلكى ولَصَّتْ جواهرَ أسرتى وحُلِىَّ آلى

فرُمتُ الموتَ لم أَجبُنْ ولكن لعل جلالَه يَحمى جلالى

فلا تَمشِى على تاجى ولكن على جسدٍ ببطن الأرض بالى

وقد علم البريّةُ أن تاجى نَمَتْه الشمسُ والأسرُ العوالى

يُطالبُنى به وطنٌ عزيزٌ وآباءٌ ودائعُهم غوالى

أأدخلُ فى ثياب الذل روما وأُعرَضُ كالسّبيِّ على الرجال؟

وأُحدَج بالشماتة عن يمينى ويعرِض لى التهكُّمُ عن شمالى؟

وألقَ فى النّدِيِّ شيوخَ روما مكانُ التاج من فَرْقِى خالى؟

وأغشى السجن تاركةً ورائى قصورَ العزّ والغُرَفَ الحوالى؟

وتَحكُمُ فىّ روما وهى خَصمى وتُسرفُ فى العقوبة والنّكال؟

يَرانى فى الحبائل مُترَفوها وقد كان القياصرُ فى حِبالى

إذن غيرُ الملوك أبى وجدّى وغيرُ طرازهم عمّى وخالى!

سأنزلُ غيرَ هائبةٍ إذا ما تلمَّظت المنيّةُ للنزال

أموتُ كما حَيِيتُ لعرش مصر وأبذُلُ دُونه عرشَ الجمال

حياةُ الذلِّ تُدفَعُ بالمنايا تَعالَىْ حَيَّةَ الوادى تعالى

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها الى السلة]

يا ابنتىْ وُدّى ... هَلُمّا ... زيِّنـانى ... ... للمنيـهْ
غلّلانى ... طَيِّبانى ... بالأفاويهِ ... الزكيه
ألبِسانى حُـلّةً ... تُعْـجِبُ أنطونيو ... سنيـه
من ثيابٍ ... كنتُ فيها أتلقـاه ... ... صبيه
ناولانى التـاج ... تاجَ الـشَّـمس ... فى مُلْك ... البريه
وانثرا ... بين ... يدىْ ... عر شى ... الريا ... حين البهيه

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى] :

كليوبترا و يالهـفى عليـك يا كلـوبترا
وَصيفاتُك فى الدنيـا وَصيفاتُك فى الأخرى

[وتمهد لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون] :

كلوبترا ذهبتِ اليو مَ بالدنيـا كلـوبترا
تعـالَ أيهـا الأفعَى أريحيـنى أنا الأخرى

[يدخل أنوبيس وحابى]

أنوبيس :

انسلتِ المُهرَة من قَيْدها وأفلت الطيرُ من الصائد !

حابى :

هيلانَ ، يالهفا على الحبيبهْ على الجمال وعلى الشبيبهْ

على الفتاة الحُرّة النجيبهْ

[يتحسس جسمها]

يا للحياةِ ماتنى دبيبا أبى ، تأمّلْ جسمَها الرطيبا

واسمعْ تجِدْ لقلبها وجيبا

أنوبيس :

حابى نسيتَ حُقّةَ النجاة !

حابى : هيهاتِ أَعصيك أبى هيهاتِ

إن أَنسَ أَشياءَك أنسَ ذاتى !

[يخرج الحقة من جيبه]

خُــذْها :

أنوبيس :

بل اسكبْ فى فم الفتاةِ لعلها تصحو من السُّباتِ

[يشتغل حابى بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليو باترا] :

بنتى رجوتُك للضحية والفِدا فوجدتُ عندك فوق ما أنا راجى



بنتى رجوتك للضحية والفــدا   فوجدت عندك فوق ما أنا راجى

(صفحة ١٠٨)

إنْ تُصبِحي جسدًا فنفسُكِ حرةٌ وعُلاكِ سالمةٌ وعِرضُكِ ناجي
سيقولُ بعدكِ كلُّ جيلٍ مُنصِفٍ ذهبتْ ولكن في سبيل التاجِ

[ثم يلتفت إلى جثة شرميون] :

وأنتِ أيضًا شرميونُ جيفةْ مُتِّ ولكنْ مِيتةً شريفةْ
ما أعظمَ المَلْكَةَ والوصيفهْ !

حابي : أدنُ أبي ألقِ النظرْ يا لَعجائبِ القدرْ !

أنوبيس : أحدث ترياقي الأثرْ ؟

حابي : أنظرْ أبي ترياقَكَ الـ ـمحسن ماذا منحا ؟
أنظرْ فهذا مَلَكي من رقدةِ الموتِ صحا
قد فتح العينينْ بعـ ـد اليأس من أن تُفتَحا
وهذه أنفاسُه رَيْحانُها قد نَفَحا
مولاي قد قَرَّبتَ من سعادتي ما نَزَحا
أنت الذي رَددتَها رُوحًا وكانت شَبَحا
يا قلبُ كيف لم تَطِرْ عن الضلوع فرحا

هيلانة : يا ويح لي ! ويحَ لِيَهْ هل صَدَقتْني عينِيَهْ ؟
حابي، أفي الدنيا أنا؟

حابي : بل أنت دنياي هنا

هيلانة : منذا حنى عليه حتى بعثت حية ؟

حابى : أبى الذى شفاك يا ملاكى .

أنوبيس : لا بل ملاك الحب قد شفاك
وأدمع الإخلاص من فتاك

هيلانة : أبى لقد مر على الموت وكنت من عذابه نجوت
علام حلت بينه و بينى؟ الموت لا يذاق مرتين

[ترى جثة الملكة وهى تتلفت]

رحماك آلهة الوادى ذهلت فلم أذكر ملاكا وراء العرش مضطجعا
بالأمس، لا، لا بل اليوم التحقت به صرعت بالناقع السارى كما صرعا
لقد رحلنا عن الدنيا الغرور معا مالى رجعت إلى الدنيا وما رجعا
ليت الطبيب الذى داوى فأخرجنى إلى الحياة على الدنيا به طلعا
مليكتى ، ربتى ، صفحا ومغفرة إن المروءة كانت أن نموت معا

الكاهن : بنيتى ...

هيلانة : صه أبى ،

الكاهن : لا أنت واهمة
فلستما فى ملاقاة الردى شرعا

وقفتما موقفًا فى الخطب مختلفًا لو جرّبتْ فيه غيرَ الموت ما نفعا

حابى : تعالىْ نحْىَ فى الحقل مع الطير كما تحيا
هلمّى الحبَّ هيلانـ ـةُ فالحبُّ هو الدنيا
أبى دونك بارِكنا وإن شئتَ فشاركنا

أنوبيس : إذا فارقتُ محرابى فمن يبكى على مصرا ؟
سأبقى هاهنا ابنىَّ إلى أن أقضىَ العُمر
هلُمَّا ابنىَّ بِاسم اللـ ـه سيرا وابنيا الوكرا
هلما جنةَ الوادى هلما طيبةَ الغزّا
لئن فرّقنا الدهرُ فقد تجمعُنا الذكرى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق] :

أنوبيس : البوق دوّى قيصرُ أقبلْ

[يدخل حارس]

الحارس : مولاى قيصر

[يتنحى عن الباب و يدخل قيصر وفى معيته الطبيب أولمبوس]

أنوبيس :

ما يبتغِى قيصرُ من أسيرته ؟ إن التى أعدّها لزينته

يَدخل روما وهى فى كتيبته تَزيدُ فى موكبه وقيمته
ماتتْ ولم تنزلْ على مشيئته بُورِك فى النيل وفى عَقيلته

قيصر :

آلهةَ الرومان ! ماذا أرى؟ إمرأةٌ تَسخَرُ من قائدِ
قد أبطلَتْ كيْدى على ضعفها ولم تزلْ تَسخَرُ بالكائد
فى الجسد الحسىّ تمنيتُها لم أبغها فى الجسد البائد

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه] :

الحادثُ العجيبُ قيصرُ والطبيبُ !
يَغدُرُها وعهدُه ببابها قريبُ

أكتافيو :

عجيبٌ يا طبيبُ أرى قتيلًا ولكن لا أرى أثرَ الجراحِ !
أليستْ فى الفَناء أرقَّ لونًا وأندَى من رياحين الصباحِ
فهل تدنو فتكشف كيف ماتتْ أبا السم الزُّعاف أم السلاح؟

[يقترب أولمبوس وينحنى على صدر الملكة من الناحية التى رميت فيها الأفعى]



عجيب ياطبيب أرى قتيلا ولكن لا أرى أثر الجراح ! ؟

(صفحة ١١٣)

ألمبوس :

جبين مُشرقُ الغُرّهْ ووجهٌ ضاحكٌ نَضَرهْ
وعينان كأن المو ت في جَفنيهما كَسْرَه
وهذا فمُها تبدو الـ منايا عنه مُفتَرّه
ولكن قيصرُ ادنُ انظرْ هنا السرُّ هنا العبره
فبين السَّحر والنحر كمِثل الخَدش من إبره
مكانُ الناب من صِلّ شديد البأس والشِّرّه

[تلدغه الأفعى]

إلهي ، قيصري ، آه لقد مَسّتْ يدي جَمرهْ
سرى السمُّ بأعضائي وعَمّتْ جسدي فَـ [illegible]
وجاءت سَكْرةُ الموت [illegible]

أكتافيوس :

ويل !
وويح ا . ـ

أنوبيس [لنفسه] :

قد وقع الحاف

قيصــر :

وَداعًا كلوبَترا الى يــوم نلتــقى وتَنفُضُ عنها الهامدينَ المَقــابرُ
محا الموتُ أسبابَ العداوة بيننا فلا الثأرُ منْجاحٌ ولا الحقــدُ ثائر
وما استحدثَتْ عند الكرام شَماتةً صُروفُ المنايا والجُدودُ العواثر
وَداعا و إن نحن اقتتلنا وجَرَّدتْ حُسامَيهما أوطانُنــا والعَشــائر
تَحدَّيتنى بالمــوت حتى قهرتنى ومالىَ سلطانٌ على الموت قاهر
ترفَّعت عن قَيْدى ومُتّ عزيزةً وأيــدى المنــايا للقيود كواسر
وأنت التى نازعت روما مكانَها وجَرَّتْ بناديك القيودَ القياصر
لعبتِ بأنطونيو و يوليوسَ حقبةً كما جاء بالمسحور أو راح ساحر
وما أنا إلّا ســيفُ رومةَ باترًا أصيبَ به ســيفٌ لرومــةَ باتر
زَجرتُ فلم أُسمَعْ فقاتلتُ مُكرَهًا وفى الحرب إن لم تردَعِ السِّلمُ زاجر
وأنطونيو صهرى الكريم بمثــله يُطاولُ أنسابَ الملوك المُصاهر
وَداعًا عروسَ الشرق كلُّ وِلاية و إن هَزّتِ الدنيا لها الموتُ آخر

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والخناجر خارج القصر]

أنوبيس :

أكثرى أيها الذئاب عُواءً ... وادّعى فى البلاد عِزًّا وقهرا

أنشِدى واهتِفى وغَنِّى وضِجّى ... واسبحى فى الدماء نابا وظُفرا

لا وإيزيسَ ما تملّكتِ إلا ... وادياً من ضَياغم الغاب قَفرا

قَسَمًا ما فتحتُمُ مصر لكنْ ... قد فتحتُمُ بها لرومةَ قبرا

« ستار الختام »

نظـــرات تحليلية

كليوباترا والتاريخ :

فى عصر من عصور التطور السياسى الدائم على عرش مصر، وفى النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، احتكت عظما الامبراطورية الرومانية بالسياسة المصرية القديمة، وطوت فى هذ الاحتكاك آخر صفحة من تلك المدنية الزاهرة التى اصطبغت بها مصر فى ظل البطالسة وتحت حكمهم أكثر من ثلاثة قرون .

وجاء دور المؤرخ ليسجل أنباء هذا الاحتكاك فكان من حظ العلم :

(أولا) أن استقى هذا التاريخ مادته من مصدرين كانا كل وسائل التاريخ القديم . فالمصدر الأول آثار يعرض لها عادة فى مثل هذه العواصف السياسية المضطربة غير قليل من التزييف والضياع . والمصدر الثانى رواة يجتهدون فى رواية الحوادث اجتهادا، فيخطئهم التوفيق أحيانا، فيروونها لا كما كانت ولكن كما اشتهوا أن تكون .

(ثانيا) أن نهضت بهذه المهمة الخطيرة أقلام، إما رومانية وإما مدينة لروما هوى أو ثقافة ، فسجلت هذه الأقلام تاريخ هذا الانتقال السياسى فى أسلوب قصصى ، فاز فيه قياصرة

الرومان بأكاليل الغار كلها ، فالظافر من بينهم بطل ، والمخذول منهم ضحية ، وللضعيف على كل ما فعل أو أسف علل قوية من هوى هذه الأقلام فى حين أن الملكة المصرية المظلومة — كليوباترا — الممثلة الأخيرة لمجد البطالسة وسلالتهم ، والتى سوّى على حساب سمعتها وكرامتها وأفول نجمها هـذا الحساب الخطير، لم تصب منه إلا ركاما من التبعات والآثام واللعنات .

ظهرت حية النيل العجوز — كما نعتوها — فى هذا التاريخ، وعمـدته « بلوتارخوس » ، وفى معظـم الروايات التى استوحته واستقت من معينه ، فى مظهـر امرأة خطالة متهمة فى عفتها من حيث هى امرأة، وفى جلالها و إخلاصها لبـلادها من حيث هى ملكة، مجرد ...

« ... أنثى أفنت العمر بالهوى بهيميـة اللذات والشهوات »

خاضعة فى كل أدوار حياتها السياسية لشهوة مذبذبة ، تدفع بها رخيصة الى كل صاحب مجد أو جاه ، متصلة — ما اتصلت فى هواها — ببطل، منفصلة — ما انفصلت — عن « حطام مبعثر مستباح » ، دائبة البحث عن فريسة جديدة تستل آمالها ، وتسلبها جلالها ، وتهيض من جناحها المحلق فى سماء المجد والخلود .

وعجيب أن تقفر حياة كهذه الحياة الحافلة بالمـآسى إلا من هـذا

الركن الدنس ، وعجيب ألا يرى أولئك القصاص فى هذه النفس الطموح ظلا لأمل خير أو حلم نبيل ، وعجيب أن تجثم فى كل ناحية من نواحيها رذيلة تهب المداد لهذه الأقلام !

مرمى الرواية :

أليس المؤلف المصرى إزاء هـذا الاضطهاد الصارخ لهـذه الملكة المصرية ، بحكم الثلاثة القرون التى قضاها أجدادها العظماء على ضفاف النيل ، مستقلين عن كل نفوذ أجنبي ، أبرياء إلا من العمل المتصل لمجد مصر ورفاهتها ، مستحيلة دماؤهم قطرة فقطرة الى دماء مصرية خالصة على توالى الأيام . أليس المؤلف المصرى فى حل — مادام البحث العلمى يكشف بين الحين والحين فى هذا التاريخ المتهـم عن حلقات ضائعـة أو أوهـام أنزلت فيـه منزل الحقائق — من إنصاف هذه المصرية المضطهدة ، ولو إلى الحد الذى يتفق مع هيكل هذا التاريخ المجرّد ، ولا يحرمها على الأقل من سمو الغاية ونبالة المقصد ؟

أعتقد أنه ليس فى حل من هذا الإنصاف فقط ، ولكنه مسئول عنه الى أن يصل البحث الحديث فى تقرير حقيقة التاريخ القديم الى آخر مداه فيعز من يشاء ويذل من يشاء .

على هـذا الأساس يضع مؤلفنا المصرى اليـوم فى "مصرع كليو باترا" صورتين جديدتين : إحداهما لتاريخ كليو باترا فى قليل من التحوير المنطق المعقـول لتاريخها القـديم ، والآخرى لحياة كليو باترا حريصا فيها على أن تحاط بنفس الجو الظنين الذى يحيطها به رواة التاريخ القديم ، مانحا إياها الحق الأكبر فى الدفاع عن نفسها وعن سياستها وعاطفتها ، غـير تارك لسواها من أشخاص الرواية إلا حظا ضئيلا من هذا الدفاع ، وهو إذ يمنحها هذا الحق دون سواها من أشخاص الرواية إنما يحرص أولا على أن يترك لأولئك الأشخاص مطلق الحرية فى تحديد هـذا الجو الظنين ، وثانيا على ألا يقسو فى مس الكرامة العامة للتاريخ ، وثالثـا على أن يترك الباب مفتوحا لتحقيق مالهذا الدفاع من وجاهة فى نظر البحث الحديث المنصف .

كليو باترا فى نظر التاريخ القديم :

ولدت كليو باترا سـنة ٦٩ قبل الميلاد ، وكانت على أن تبنى بأخيها الأكبر وتتولى العـرش معه ؛ فنوزعت فى هذه الشركة ، ففرت إلى سـوريا لتعبئ جيشا هناك تسـتعيد به تاجها المفقود . وهناك صادفها يوليوس قيصر ، فوقعت من نفسـه ، فمكنها من العرش شركة مع أصغر أخويها ، فما لبثت أن قتلته مسموما وتبعت قيصر إلى روما فاحتفى بها حفاوة أثارت سخط الرومان .

وقتل قيصر فترددت كليوباترا أى الصفين تتبع : أصف واتريه أم صف الموترين فيه ، حتى إذا تم النصر لخلفاء قيصر على قتلته دعاها أنطونيوس الى طرسوس لتقدم حسابا عن هذا التردد المقصود ، وقد لبت دعوته فسارت اليه فى موكب بحرى نخم تجلت فيه روعة الشرق وجلاله وغناه ، وكانت يومئذ فى الثامنة والثلاثين من عمرها على أبهى ما كانت من سحر وفتنة وجمال ، فما لبث أنطونيوس أن رآها حتى افتتن بها وضحى فى سبيلها بمكانه وكبريائه ، وأخيرا بملكه ومطامعه وحياته . وقضيا الشتاء التالى فى الاسكندرية فى غرام نسيا فيه كل شىء ، وعلى أن أنطونيو قد رجع الى روما وتزوج من أكتافيا شقيقة أكتافيوس ، فقد عاد الى كليوباترا وأقام معها وسخا لها ولأبنائها بالعطف والتكريم ، وفى نشوة هذا الجنون كان اسمه يتضاءل فى روما ، وكانت قواه السياسية والحربية تخور .

وفى سنة ٣٠ قبل الميلاد اشتبك القيصران فى وقعة أكتيوم البحرية ، وكانت كليوباترا بطبيعة الحال تؤازر بأسطولها أسطول أنطونيوس ، ففرت أثناء المعركة وفر فى أثرها حبيبها المفتون ، وبذلك كتبت عليهما الهزيمة الأولى ، ثم اشتبك الجيشان فى معركة برية على أسوار الأسكندرية ، وكاد النصر فى أولها يواتى أنطونيوس ثم سرعان ما تنكر له وتم عليهما الخذلان الأخير .

وحاولت كليو باترا أن تأسر بجمالها القيصر الظافر، وأن تفعل به ما فعلت بأنطونيوس ، فاشتركت معه فى مفاوضات لصالحها الخاص ، وأرسلت الى أنطونيوس من أوحى اليه بموتها، فاتكأ على ظبة سيفه حتى إذا علم فى احتضاره كذب هذا الوحى، أمر أن ينقل اليها حيث جاد تحت شفتيها بالنفس الأخير . وأيقنت كليو باترا بعدئذ أن القيصر الظافر إنما يخدعها عن نفسها، وإنما يريدها شارة ممتازة فى موكب انتصاره، فانتحرت تاركة وراءها بنتين من أنطونيوس كفلتهما أكتافيا ، وولدا من يوليوس قيصر (قيصرون) قتل فى عهد أكتافيوس ، وجسدا هامدا ضمه القبر إلى رفات أنطونيوس ، وذكريات حية خالدة ...

فضن عن الملوك والقواد وصرن وحى شاعر وشادى
وفتنة اليراع والمداد

وجوه الاختلاف الأساسى بين الحوادث التاريخية والحوادث الروائية

يهمنا من هذه الحوادث إزاء الرواية ما تناول الأيام الأخيرة من حياة كليو باترا، تلك الأيام التى لم تتناول الرواية سواها، فنرى:

(أولا) أن فرار كليو باترا من وقعة أكتيوم كان جبنا وغدرا فى التاريخ :

وترى أثر هـذه النظرية التاريخيـة فى الرواية حيث يعتب أنطونيوس على كليوباترا :

وقلت انسحبت ضعفا وقال الناس بل غدرا

فى حين أن هذا الفرار فى الرواية جزء من سياسة كليوباترا — وسوف نبسطها بعد قليل — ويدل على ذلك وعلى روح هذه السياسة قول كليوباترا .

فتأملت حالتى مليا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف سللت شراعى منه فانسلت البوارج إثرى

(ثانيا) أن التاريخ لم يذكر أن جيش كليوباترا فرّ من المعركة البرية بينما سجل المؤلف هذا الفرار فى الرواية تمشيا مع السياسة التى اختطتها كليوباترا لنفسها ، وفى ذلك يقول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألقى السلاح ونجا

(ثالثا) أن كليوباترا هى المسئولة أمام التاريخ عن انتحار أنطونيوس بينما يبرئها المؤلف من هـذه التهمة ، ويخلق شخصية خيالية يلقى عليها هذه التبعة ، هى شخصية الطبيب أولمبوس ، ونرى ذلك حيث تتساءل كليوباترا فى لوعة ولهفة :

من نعانى كذبا من قالها لك

وإذ يجيبها أنطونيوس :

« أولمبوس النذل الخؤون »

وحيث نسمع أولمبوس فى الفصل الثانى من الرواية مهدّدا ناقما :

أوروس أنطونيو حسابكما غدا   روما الأبيـة لم تنم عن ثارها

وحيث نلمس مكمن الحيلة بين هذه النقمة وذلك الانتقام .

(رابعـا) حاولت كليوباترا تاريخيا أن تستصبى عدوّها الظافر، وأن تغدر حبيبها المخذول، ثم انتحرت عند ما فشلت هذه السياسة، والمؤلف ينزهها عن هذا الإسفاف، ويجعل أوّل لقائها لأوكتافيوس وأوّل اتصاله بها عقب مصرع أنطونيوس ، ثم يجعل من هـذا الاتصال مفاوضات ، ويجعـل فى هـذه المفاوضات خداعا من قيصر وإباء من كليوباترا ، فلا تصبى ولا محاولة إيقاع فى غرام، ثم يجعل انتحارها حرصا على تاج مصر أن يذله العرض فى روما من ناحية، وذلك إذ تقول :

سطت روما عـلى ملـكى   ...   .

فرمت الموت لم أجبن ولكن   لعـل جـلاله يحمى جـلالى

فـلا تمشى على تاجى ولكن   على جسد ببطن الأرض بالى

ووفاء لأنطونيوس من ناحية أخرى وذلك إذ تقول :

أيهـا الذاهب قد آ   ن عن الدنيا ذهوبى

أيها الخالص ودّا لبس ودّى بالمشوب
... ...
عن قريب ينطوى القبر علينا عن قريب

صورة تحليلية لأهم أشخاص الرواية

كليو باترا

ما فتئ المؤلف منذ مطلع الرواية الى مقطعها يؤكد جنسية كليو باترا المصرية و إن تحدّرت من نبعة أجنبية، فقد كان الزمن الطويل الذى قضاه أجدادها فى مصر — كما أسلفنا — كافيا لتمصيرها .

وعبث أن نختار من الرواية قطعة دون أخرى لإثبات هذه الجنسية، فالرواية كلها دليل متصل، نسجل منه على سبيل المثل قولها :

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وقولها :

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر

ثم قولا آخر احتال فيه المؤلف على تبرير هذه الجنسية ، متحاشيا فى هذا التبرير إلا مجرّد التلميح من بعيد لدمها القديم ، وذلك إذ يقول حابى لزينون :

أخى هــذا أتيــنى وخلى ذاك مقدونى

... ...

كلا الخلين ذو جدّ بأرض النيل مدفون

فليسا فى هوى مصر وفى طاعتهــا دونى

وتصوّر الرواية كليوباترا من نواح ثلاث يستحسن أن نبحثها منفصلة : الأولى من حيث هى امرأة، والثانيــة من حيث هى ملكة، والثالثة من حيث هى شخص سياسى :

كليوباترا امرأة

(ا) جميــلة :

وأمام جمالها يتمنى زينون رأسين :

يطأطئ رأسا لمجــد النبــو غ ويخفض رأسا لمجد الجمال

ويناجيها أنطونيوس قائلا :

ردّى على هامتى الغار التى سلبت فقبلة منــك تعلوها هى الغار

ويذكرها وهو يودع الدنيا:

لمــا لقيتك فى الجمال وعزه قهرت قواى الظافرات قواك

وفى احتضاره يهتف بها :

كليوباترا زوديني قبــلة من ثناياك العذاب الشبمات

وهيلانة تحدث عنها :

لم يحـــو شمسين الفلك

وأنو بيس يلقبها :

شعاع المدائن نور القرى

وحبرا ينبهر أمام كفها ...

عجب عينى لا تقـ ـوى على هذا الضياء
هـذه كـف إله جاء فى زى النســاء

ورسول أكتافيوس قيصر يعجب لمولاه كيف :

... لا يابى دعوة الحسن طائعا ... ...
وقد كان يوليوس يقوم ببابه ويمثل أنطونيوس فى العتبات

(ب) قوية الثقة بجمالها :

وبوحى من هذه الثقة تناجى الإسكندرية قائلة :

وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا

وتصف عشاقها قائلة :

يموتون بى عشقا ويشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومماتى

وحينما تفكر فى الانتحار لم يكن يشغلها من الدنيا شاغل إلا أن تحتفظ فى موتها بهـذا الجمال ويبـدو ذلك أولا فى الحـوار بينها وبين أنو بيس :

« ولكن أبى هل يصان الجمال » ؟ « وهل يطفأ اللون » ؟
« وهل يبطل الموت سحر الجفون » ؟

وثانيا عند ماتناجى شبح الموت :

ياموت لا تطفئ بشاشة هيكلى وآحفظ ظواهر لمحتى وجلالى
... ...
حتى أموت كما حييت كأننى بيت الخيال ودمية المثال

وتحدّث عن الحياة فتقول :

إنى آنتفعت بعبقرى جمالها وتمتعت من عبقرى جمالى

(ج) قوية البيان :

قوية يمثلها حابى حيث يقول :

ليسياس إنك قدسمعت حديثها كالسحر فى الآذان حين يدار
تبدو الخيانة فيه وهى أمانة ويرى الثبات عليه وهو فرار

(د) شاعرة :

وفى ذلك يقول لها أنطونيوس :

وقولى الشعر علويا

ويقول للمغنى إياس :

غننى شعر ملاكى غننى شعر الإله

ولها فى الرواية نشيدان : « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا »

و « يا طيب وادى العدم »

(هـ) ولوع بالقراءة :

وفى ذلك يقول زينون :

... ... تنسى ملكها بلقاء الكتب أو تنسى هواها

وقد رأينا أن لها فى قصرها مكتبة .

(و) الأمومة لديها كالغرام — وسوف نتحدث عنه فى موضعه — عاطفة ثانية إذا كان حب المجد و إباء الضيم فيه عاطفتها الأولى :

وقد أشتهى عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

(ز) عفة الهوى :

وقد تروع القارئ هذه الحقيقة لأوّل وهلة ، إزاء سلسلة التهم القاسية التى وصمت بها كليوباترا فى الرواية كما يبدو من هذه الأمثلة :

(١) هتفوا لمن شرب الطلا فى تاجهم وأصار عرشهم فراش غرام

(٢) أترضى أن يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء ؟

(٣) قد اجترأت على روما البغى

(٤) صرح أبن قل غدرت قل جدّدت بقيصر الثالث دولة الهوى

(٥) ... ... أفنت العمر بالهوى بهيمية اللذات والشهوات

لكن قليلا من التفكير يردّه الى وجه الصواب فاللهمة الثانية قد رماها بهـا حابى الذى كان يراها عن بعـد فى ضوء الاشـاعة السائرة، والذى لم يلبث أن نزل عن بعـد رأيه فيهـا حينما عرفها عن كثب، فعاد يعدها « أبر المـالكات » و « أشرف النـاس إحساسا ووجدانا » و « لا يقيس بها فى الطهر إنسانا » . والتهمة الأولى قد وجهت اليها من شـاب كان يشـترك وحابى فى نظرته الأولى اليها ، لكنه لم يقترب منها ليرى ما رآه حابى فى النهاية . والتهمة الثالثة موجهة اليها من قائد رومانى غاضب لكرامة بلاده، أى من خصم سياسى موتور . والتهمة الرابعة صاحبها أنطونيوس، رماها بهـا ظلما فى ساعة يأس، ثم كفر عنها بانتحاره ، وسوف نتحدث عن وفائها له بعـد قليل . والتهمة الأخيرة إنمـا تجمع فيها كليوباترا خلاصة ما يقال فيها وفى هواها ثم تدفعه فى قولها :

فـدا الغرامى بالرجال وحسنهم	غرام الغوانى أو هوى الملكات
فليس الغلام البارع الحسن فتنتى	ولا الرائع الأجلاد والعضلات
... ...	... ...
ولكن عشقت العبقرية طفلة	وفى الغافلات البله من سنواتى

وفى قولها والضمير للحياة :

ووجدتها قـد خلدت أبطالهـا	فبسطت سلطانى على الأبطال

(ح) وفية لغرامها مخلصة فيه إلا حيث يصطدم هذا الغرام بوطنيتها .

فأما وفاؤها لغرامها وإخلاصها فيه فموقفها من أنطونيوس جريحا وميتا وبعد أن لم يعد يرجى منه خير ولا أمل ، وذكرها له وهى مشرفة على الموت حيث تنادى الموت قائلة :

سر بى الى أنطونيو فى نضرتى ورواء جلبابى وزينة حالى

وحيث تنادى وصيفتها قائلة :

ألبسانى حلة تعجب أنطونيو سنيه

كل ذلك آيات على هذا الوفاء والاخلاص .

وأما تضحيتها بغرامها لسياستها فعلى الرغم من أقوالها « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » و « الحياة الحب والحب الحياة » ونحن قربنا له — أى للحب — ملك الثرى » و

هو أعطى الحب تاجى قيصر لم لا أعطى الهوى تاجى منا

على الرغم من هذه العاطفة القوية التى أظهرتها كليوباترا دائما فى مواجهة أنطونيوس ، والتى لم يؤيدها الأمر الواقع ، والتى إن دلت على شىء ، فعلى أن كليوباترا كانت ككل امرأة سواها ...

(ط) — يداخلها فى حضرة حبيبها أثر المبالغة وروح الرياء ولعلها تعتذر عن ذلك إذ تقول والضمير للحياة :

بنت الحياة أنا ... ...
عنهـا تناولت الرياء وراثة وأخذت كل خديعة ومحال

نعود فنقول على الرغم من كل هذا إن غرام كليوباترا — كما سـوف نرى حينما نعرض لسياستها — ما تعارض يوما مع هـذه السياسة ومع ما كانت تكفل به التاج المصرى من حب ورعاية ، إلا خرّ هذا الغرام صريعا .

بقيت نقطة أخيرة تتصل بهـذا الهوى ، وتلك أن كليو باترا كانت فى ساعات لهوها ...

(ى) تفنى فى هذا اللهو وتستمتع به وتنسى ما سواه .

وحسبنا فى الاشارة إلى ذلك قولها :

فاطو معى حوادث الـ ـأمس ولا تجـدّد
وامض معى فى لذة الـ ـيوم ودع هم الغـد

وقولهـا :

لتكونن ليـلة آخر الدهر تـذكر
لا نبالى إذا صـفت بعـدها ما يكدّر

على أنها كانت تسـتظل فى هذا الاستمتاع بظل من الوقار يتبارى مع خلاعة الاغراق فيـه ، تلك الخلاعة التى كانت سمـة العصر

المترف المستهتر التي عاشت فيه ، والتي نكتفي من إثباتها بالإشارة (أولا) إلى قول القائل :

هلا نظرت إلى الأمـيرة إنها ســكرى تعثر فى خليع عذرها

(ثانيـا) إلى اتضاعها فى وليمتها حيث تترك يدها فى يسر لتكون نهبا بشفاه عرّاف صغير .

أما الظل الوقور الذى كانت تستظل به فى هــذه الساعات اللاهية والذى يبدو فى قولها :

اجعلوها وليمــة وبساطا يتبـارى خلاعة ووقارا

فلعلها استمدّته من قبـس دينى ما فتئ يتردّد على نفسها بين الحين والحين . وتبدو ...

(لك) مستمسكة بدينها إذ تهتف بأنوبيس فى موضع :

صل من أجلى ولا تنـ ـس صغارى فى صلاتك

وفى موضع آخر :

هذا مقام صـلاتى وهيكلى للضـراعه
ولى خطايا كثير لا تبرح البال ساعه
فادخل وصل لأجلى فمنك ترجى الشفاعه

وفى موضع ثالث :

أبى دخلت نفسى حيرى الزمام حزينه

وقد تركت المصلى ومِلءُ قلبي سكينه
إن الصلاة على شدّ الزمان معينه

وبين هذه العفة والوقار من جانب، وهذه المتعة والخلاعة من جانب آخر جهرت كليوباترا بهذا الاعتراف والضمير للحياة :

ولربما رشدت فسرت برشدها وغوت فأغوتني وضل ضلالي

ووصفها أنوبيس بأنها كشعاع الضحى :

يخوض الوحل ويغشى الحلى ويأوى الحضيض ويعلو الذرا
... ...
ولكنه طاهر حيث طاف نقي الذيول عفيف الخطا

كليوباترا ملكة

(أ) قوية الشخصية :

وأظهر ما تبدو هذه القوّة فى أربع مواضع . (الأول) حينما تدخل على زينون بعد أن لعنها وتآمر عليها فلا يكاد يسمع تحيتها حتى يردّها قائلا :

سلام السماوات فى مجدها على ربة التاج ذات الجلال

(الثانى) حيث يقول أوروس :

لولا الوليمة والشراب وجرمة لأميرة الوادى السعيد ودارها

(الثالث) حيث يقول أنطونيوس :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى وتركتنى نفسا بغير ملاك

(الرابع) حيث يؤبنها أكتافيوس :

لعبت بأنطونيو ويوليوس حقبة كما جاء بالمسحور أو راح ساحرا

بيد أن هذه القوة كانت تظهر أحيانا كأنها مشوبة بضعف، لكنه ضعف مصطنع ترى فيه المرأة دائما سلاحا من أسلحة قوتها. فهى حينما تنادى أنطونيوس :

مكانك قيصر لا تذهبن ولا تبرح القصر أهلك أسى

إنما تجرب قوة دلالها، وقد أفلحت فى هذه التجربة ورأينا كيف استنهضت بهذا الدلال من حماسة أنطونيوس، وكذلك عند ما تقول لأوكتافيوس :

نخذه من يد الموت ومن عاجزة تبكى

فقد كان ذلك منها تهكما بتهكم، وقد رأينا كيف وقفت بعد ذلك وقفتها فى إبائها وكبريائها الأعزل، فاضطرت القيصر المتتصر أن ينتقل فى خطابها من سخرية إلى احترام .

وفى ذلك تقول هى :

فإن تك بى خشية فى النساء فلى جرأة الملكات الكبر

ويقول أكتافيوس :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ولم تزل تسخر بالكائد

(ب) مصلحة :

وفى ذلك تناجى الاسكندرية قائلة :

وشيت برك جدولا وخميلة وكسوت بحرك عدّة وشراعا
وأنا اللباة وقد ملأتك غابة وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا
قد خفت من بعدى عليك ممالكا يطلقن فيك الفاتحين سباعا

(ج) نفور :

ويبدو هذا الفخر على أشدّه حينما تجعل نفسها « ضرة روما » إذ تقول :

اليوم تعلم روما أن ضرتها تقلد الغار من تهوى وتختار

وحينما تقول لحابى :

دع الذود عن مصر لى إننى أنا السيف والآخرون العصا

وحينما تقول :

وقد علم البرية أن تاجى نمته الشمس والأسر العوالى

وحينما تخاطب الاسكندرية قائلة :

« وأنا اللباة وقد ملأتك غابة »

وحينما تسأل العرّاف :

أحضيض يومى الآ — خر قل لى أم سماء
خاتم الأيام أو — لى باهتمام العظماء

(ى) أبيـة :

وآية ذلك قولها لأنو بيس :

أبى لا العزل خفت ولا المنايا — ولكن أن يسيروا بى سبيا

وقولها فى وداع حياتها :

أأدخل فى ثياب الذل روما — ... ...
... ... — ... ...
إذن غير الملوك أبى وجدّى — وغير طرازهم عمى وخالى

وقولها فى وداع صغارها :

وقد أشتهى عيش الذليل لأجلهم — فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

وفى تأبين أكتافيوس لها :

ترفعت عن قيدى ومت عزيزة

(هـ) تتألف خصومها :

واحتيالها فى اجتذاب حابى اليها عن سبيل حبه لهيلانة خير دليل .

(و) عطوف على أتباعها :

تقول اوصيفتها :

أنت لى خادم ولكن كأنا في الملمات أهل قربى وصهر

وتقول لها وصيفتها :

يا رب ذنب ... ... يتعب العذر فيه مهدت عذرى

وقد أكسبها هذا العطف تفانيا فى حبها من أولئك الأتباع .

فانظر الى هيلانة إذ تقول :

إن التى شب فى نعمائها ونبهت لى فى سلطانها شانا
إن لم أمت دونها أو لم أمت معها فما جزيت عن الاحسان إحسانا

وإذ تقول على جثتها :

ليت الطبيب الذى داوى فأخرجنى الى الحياة على الدنيا به طلعا

وإذ يصل هذا التفانى الى حدّ التضحية بالحياة ، وإذ يتجلى الحزن الشامل على القصر ومن فيه فى الساعة التى أفل فيها نجم كليوباترا وأشرفت على مفارقة الحياة، أنظر الى كل هذا تجد أن أولئك الأتباع وجدوا فى ظل كليوباترا العطف والرفق والاحسان .

(ز) غفـــور :

ويبدو ذلك فى قولها لحابى :

فمثلك تاب ومثـلى عفـا

(ح) جليـــد :

ونرى أثر هذا الجلد فى قولها :

ياويح صحبى بعد طول سرورهم	قعــدوا الى أحزانهــم يبكونا
جيئى بهم ياشرميون لينظروا	جلدى فيهدأ بعض ما يجدونا

(ط) تكره التملق :

وفى ذلك تقول لحبرا :

خالــنى من زخرف المــد	ح ومن زور الثنــاء

ســـياسة كايو باترا

تقول كايو باترا لأوروس :

الحــرب فنــك أورو	س والســـياسة فـــنى

فهل هذا صحيح ؟

لقد كانت كايو باترا بعيدة النظر حينما عتبت على أنطونيوس عقب انتصاره فى اليوم الأوّل من يومى المعركة البرية على أسوار الاسكندرية أن ترك خصمه من غير أن يضربه الضربة القاضية بعد أن اقتحم عليه مضاربه ...

تركتهم لغد ؟ هذى مجازفة	غد غيوب وأسرار وأقــدار

وقد أثبتت هزيمة أنطونيوس فى اليوم التالى بعد هذا النظر .

وكانت كليوباترا بعيدة النظر كذلك حينما استشفت من خلال ذلك العرض المعسول الذى عرضه عليها أكتافيوس :

ولها الوادى وما يحـ ـمل ملكا ورعيه
وبنوها يرثون المـ ـلك من روما الوصيه
واذا حلت بروما وجدت روما حفيه

شبح الحيلة والخداع ، فكادت له كيدا اضطره أن يقف أمام جثتها موقف المنهزم يقول :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ... ...
فى الجسد الحى تمنيتها لم أبغها فى الجسد البائد

هذا من ناحية أخرى فقد اختطت كليوباترا لنفسها سياسة خاصة فى هذه الرواية ، وقد ظلت أمينة على تنفيذها حتى النهاية ، وقد فشلت فى هذه السياسة فشلا أفقدها حبها وتاجها وحياتها ، وأفقد مصر ما كان لها من شبه حرية واستقلال .

ونعرض الآن هذه السياسة ثم نتناولها بالبحث لنرى مواطن ضعفها وكيف انتهت الى هذا المصير .

وكانت كليوباترا أسيرة عواطف ثلاث :

(الأولى) حبها لمصر وحرصها على مستقبل تاجها . وقد رأينا أن الرواية ملأى بدلائل هذا الحب والحرص حينما تكلمنا عن جنسية كليوباترا .

(الثانية) حبها لأنطونيوس . ومن العبث أن نستشهد على هذا الحب بنجواها الغرامية المتصلة وحدها كلما جمع المجال بينها وبين أنطونيوس ، فلقد تتهم هذه النجوى بشيء من المبالغة والرياء ، وخير أن نقصر هذا الاستشهاد على حديثها عنه فى غيبته ، إذ تقول :

علم الله قد خذلت حبيبي

وإذ تقول فى موقف آخر :

هو أنطونيوس ذخري   وطريفي وتليدي

وعلى الوفاء له بعد موته ، وقد أسلفنا عليه الدليل ، ومهما يكن من اتقاد هذه العاطفة فى قلبها فقد كانت لديها كما قلنا عاطفة ثانوية ، كلما تعارضت مع حبها لمصر ، ففى سبيل وطنها كانت مستعدّة للتضحية بكل شيء ، وكانت تعتقد حقيقة أن :

المجد لا يسأل عن   صاحبة ولا والد

وكانت مخلصة حينما استنهضت حماسة أنطونيوس بهذه الكلمة الجامعة :

عد ظافرا أو لا تعد

وآية استعدادها للتضحية بغرامها فى سبيل سياسة بلادها قولها عقب فرارها من أكتيوم :

علم الله قد خذلت حبيبى ... وأبا صبيتى وعونى وذخرى
والذى ضيع العروش وضحى ... فى سبيلى بألف قطر وقطر
موقف يعجب العلا كنت فيه ... بنت مصر وكنت ملكة مصر

(الثالثة) بغضها لروما وإشفاقها من طغيان سلطانها المكين .

ويبدو هذا البغض فى عدّة مواضع . منها قولها :

لا تسيروا على ولائم روما ... سرفا فى الفسوق واستهتارا

ومنها قول أحد القوّاد الرومان لزميل له :

أتسمع ما تقول عدوّ روما ؟

وقولها :

دعوا روما ولا تجروا لها ذكرا

وقولها :

حبرا أعندك سحر ... يشل طاغوت روما؟
ويجعل الناس فيها ... حجارة ورسوما

وقولها فى موقف مفاضلة بين ألوان الشراب :

دنان مصر لا دنان الروم

ثم شعور الناس جميعا — حتى خصومها — بذلك البغض ، وفى ذلك يقول حابى لزينون قبل أن ينزل عن رأيه فيها :

ولم يبق على الود لروما غير زينون

وإشباعا لهذه العواطف جميعا رسمت كليوباترا لنفسها ثلاث غايات :

(الأولى) أن تستخلص الشرق لنفسها مستقلا عن كل نفوذ .

(الثانية) أن تضعف قوى روما ما استطاعت مع المحافظة على قواها هى .

(الثالثة) أن تعكس الآية السياسية الموجودة يومئذ ، فتسود روما من خلال سيادة قيصر ضعيف تضمن أن يخضع لفتنة جمالها دائما ، كما تضمن أن يخشى قوة بأسها ثانيا ، وكل هذه الشروط كانت تجتمع فى أنطونيوس . وتجمل كليوباترا غايتها الأولى والثالثة فى قولها لأنطونيوس :

أنت لروما فى غد وقيصرون بعد غد
والشرق سلطانى الذى إكليله لى انعقد

ثم تبسط غايتها الثالثة إذ تقول :

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ـرا من القــوم فى عداوة شطر

... ...

وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى

والوسيلة التى ظنتها كليوباترا كفيلة بتحقيق هذه الغايات ، أن تقف من القيصرين المتحاربين موقف الحياد ، فقد كانت تؤمن بتكافؤ قواهما الحربية ، لأنهما «تقاسما الفلك والجيش» وبات كلاهما :

... ... شطـ ـرا من القوم فى عداوة شــطر

وقد أثبت تداول النصر بينهما قبل المعركة الفاصلة صدق هذا اليقين . وقدّرت كليوباترا أن حيادها هذا يكفل لهــا الاحتفاظ بقواها فى البر والبحر ، بينما ينهك القتال قوى القيصرين — المنتصر منهما والمخذول — حتى إذا قرت الحرب بينهما ظهرت بجيشها وأسـطولها ، لتجهز على أكتافيوس — إذا ظفر — وهو متعب منهوك ، ولتحيي أنطونيوس — إذا كان هو الظافر — تحية القوى للضعيف ، لا تحية التابع للتبوع . لكن الحياد الصريح كان معناه المحتوم أن تفقد أنطونيوس ، وأن تفقد كل أمل فى هواه ، وأن ينهار بفقدان هذا الأمل صرح أمانيها جميعا ، فاصطنعت كليوباترا

لنفسها حيادا مقنعا تتظاهر فيه بالقيام بنصيبها من أعباء الحرب الى جانب أنطونيوس ، حتى إذا نشبت المعركة فرت بجيشها أو أسطولها ، تاركة لفرار أنطونيوس القوى مهمة التماس الاعذار لضعفها وفرارها من حومة القتال ، ناطقا على لسانه :

فقلت انسحبت ضعفا وقال النـاس بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

ومهمة أخرى هي إلقاء تبعة الغدر والخيانة على من يشاء من قوادها :

فياقائد الأسطول هل من مكيدة تدبر لى خلف الشراع وما أدرى؟

وما من شك أنها مهمات يسيرة ، إزاء مهمة الاعتذار لخيانتها السافرة لو أنها وقفت منه موقف الحياد الصريح ! وما من شك كذلك أن هـذه المهمات قد أداها غرام أنطونيوس بنجاح فقد عفى عن ضعف حبيبته مرتين ومات راضيا عنها كل الرضاء .

ونستطيع استخلاص هـذه الخطة التى اتخذتها كليوباترا من أربعة مواضيع :

(الأوّل) فى موقف كليوباترا من حاشيتها بعد وقعة أكتيوم ، تبرر فرارها فى هذه الأبيات :

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ـرا من القوم فى عداوة شطر

بطلاها تقاسما الفلك والجيـ ـش وشبا الوغى ببحر وبر
فتأملت حالتىّ مليا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف سلالت شراعى منه فانسلت البوارج إثرى
خلصت من رحى القتال ومما يلحق السفن من دمار وأسر

(الثانى) فى قول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألقى السلاح ونجا

ولقد يلقى قول كليو باترا فى استقبال أنطونيوس على أثر عودته ظافرا فى اليوم الأوّل من يومى المعركة البرية :

هو والله نشيدى والمغنون جنودى
والمخاريق التى تخـ ـفق من بعد بنودى

لقد يلقى هذا القول ظلا من الشك على مسايرة خطة الانسحاب من المعركة لسياق الرواية ، يعززه أن أنطونيوس لم يأخذ عليها فرارها من هذه المعركة كما أخذ عليها فرارها من أكتيوم ، لكن هذا الظل المريب يتضاءل ويفنى حينما نعلم أوّلا أن كليو باترا لم تشترك فى هذه المعركة بتاتا ، فقد « آلى وأقسم » أنطونيوس :

... ... لا يرى فى قصرها حتى يقوم مجده المنهار

وظل فى حنقه وغضبه منها «بأقرب ثكنة» من الأسكندرية يدعو من الرومان — وحدهم — من يختار :

ويعدّ أهبته ليـوم حاسم ... فى البر يغسل عنه فيه العار

وحينما نتمشى ثانيا مع قول كليو باترا قليلا ، فنسمعها فى فرحها بعودته تقول :

ولديهـا فارس ما ... تثم شاكى الحـديد

هو أنطونيوس ذخرى ... وطـريفى وتليـدى

فهى لم تفرق بين جنود أنطونيوس وأعلامه ، وبين جنودها هى وأعلامها ، ولكن ذكرت نوعا واحدا من الجنود والأعلام والأناشيد ، وقالت هم جنودى وأعلامى وأناشيدى ، لأنها فى غرورها الفخور وفى ثقتها بجمالها وحب أنطونيوس لها وحبها لأنطونيوس ، كانت تعتقد ما قالت « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » ، وترى على هذا أن كل ماله إنما هو ملك لها ، وكان أنطونيوس بدوره يتناسى فى انتصاره عتبه الأوّل ، ويتناسى فى غرامه أناشيد روما وأعلامها ، ويتخذ أناشيد مصر وأعلامها ، ويترك أسطوله « يعب تحت هذه الأعلام » ، وجيشه يتغنى بهـذه الأناشيد ، وفاء لها بمـا أخذه لها على نفسه ، أنه « مصرى » وأنه « تابعها الوفى » وأنه ما فى سوى رضاها له مضى .

(الثالث) قولها لأنو بيس :

وجيش الحليف وجيش العدو بظهــر المدينــة شــبا الوغى

أما جيشها هى فسياستها تعلم أين كان !

(الرابع) قولها لأنو بيس كذلك :

أبى أعلمت أن الجيش ولى وأن بوارجى أبت المضيا ؟

فكليوباترا هنا تشكو من أن بوارجها أبت المضى، لكن متى حدث هذا الإباء ؟ هل كان ذلك فى معركة أكتيوم؟ طبعا لا... لأنه لو كان ذلك كذلك لما كان هناك سبيل لشكاة كليوباترا من أمر هى صاحبة الرأى فيه، ولمـا كان هناك ســبيل للتعبير عن فــرار الأسطول يومئــذ بأنه « إباء » أى تمــرّد ، وهى الآمرة بالفرار وأسطولها لم يعد ان سمع وأطاع ، ولمـا كانت هناك فائدة فى إخبار أنو بيس بنبأ قد عرفه منذ حين ... إذن لابد أن هذه البوارج قد أبت المضى الى الحرب بعد هزيمة أنطونيوس الأخيرة ؛ وقد يبدو — وإن كان ذلك فى شىء من الغموض — أن كليوباترا تنفيذا لمـا بسطنا من خطتها أرادت أن تضرب أكتافيوس عقب انتصاره كما قدّرت ، فأهابت بأسطولها أن يمضى فأبى هذا المضى، وأهابت بجيشها أن يمضى فــولى الأدبار ... اعتاد كلاهما لذة الدعة وراحة الفرار، ومن هذه العادة جنت كليوباترا ماغرست فيهما من بذور

الضعف والخور، وتحطمت خطتها وسياستها على صخرة عاتية وقفت لديها تعض بنانها ندما وتقول :

أيها العين أبصرى   إنما كنت فى حلم

مواطن الضعف فى هذه السياسة

(أولا) أخذ أنوبيس على هذه السياسة بصفة عامة أن كليوباترا كان يجب أن تخلص فى عون أنطونيوس، فيكون الأمل فى الظفر أقوى، وذلك حيث يقول :

تركتم أنطونيو   س وحده يلقى العدا
من أجلكم سل الحسا   م وإلى الحرب مشى
ما كان ضركم لو التـ   ـففتم على اللوا

لكن حسن الظن فى كليوباترا قد يستطيع الاعتذار لها بأنها كانت تريد الى جانبها قيصرا ضعيفا يمكن أن يرث عنه القيصرية ولدها قيصرون، لا قيصرا قويا قد تفقد سلطانها عليه إذا تعرض غرامه للذبول .

(ثانيا) قدرت كليوباترا أن يظل أنطونيوس فى المعركة بعد فرارها نخانها التقدير، وفر فى أثرها أنطونيوس :

لم تأت حتى جاء فى آثارها   للحب أجنحة بهن يطار

(ثالثـا) لم تقدّر ما يحـدثه فرارها من الضعف المعنوى فى جيش أنطونيوس ، وآية هذا الضعف قول أوروس لمولاه :

وخلفت فى عسكر كالنعاج كثـير الثغـاء قليـل الغنـا
فمن يائس مات قبل القتال ومن خائن فـرّ قبل اللقـا

(رابعـا) صراحتها الطائشـة فى إعـلان بغضها لروما أمام الرومان ، واضطرارها أنطونيوس أن يظهر بهذا المظهر كذلك أمام قوّاده ، ممـا أحنق أولئك القوّاد وجعلهم يقولون :

سنلبث ساعة نحتال حتى إذا سلت عقولهم انسللنا
فمـا المتدله السكير أهلا لتنصره السيوف إذا استللنا

ونرى أثر هذا الحنق حينما يقول أنطونيوس :

جنود أكتاف أدركونى يا ليتنى مت قبـل هـذا

فيجيبه جندى رومانى :

لا بل جنـودك لـكن خانـوك حبـا لـروما

(خامسا) عدم اتعاظها بضعف سياستها بعد معركة أكتيوم ، وتكرار الانسحاب وتكرار الهزائم .

(سادسا) اعتمادها على جيش وأسـطول علمتهما الهرب من ساحة القتال ، وقصارى ما نستطيع أن نقول فى سياسة كليوباترا

إن عينها كانت ترى ما وراء الأفق وتعمى عما تحت أنفها من عثرات ، وإن هذه السياسة ليست المسئول الوحيد عن هذه الكارثة التي انتهت بها حياة كليو باترا ولكن هناك مسئولا آخر هو الضعف النفسي الذي تحكم يومئذ في أنطونيوس .

*
* *

ولعل خير إطار تحلى به هذه الصورة الجامعة المتسقة الألوان لحياة هذه الملكة هو تأبين أنوبيس لها :

بنتي رجوتك للضحية والفدا ... فوجدت عندك فوق ما أنا راجي
إن تصبحي جسدا فنفسك حرة ... وعلاك سالمة وعرضك ناجي
سيقول بعدك كل جيل منصف ... ذهبت ولكن في سبيل التاج

أنطـــونيـــوس

رسم المؤلف صورتين لأنطونيوس الجندي في هذه الرواية :

(الأولى) صورته قبـل أن يتصـل بكليو باترا أيام أن كان يضحي بالهوى في سبيل المجد .

(الثانية) صورة أنطونيوس بعد أن عرف كليو باترا وأصبح يضحي بالمجد في سبيل الهوى .

ونرى الصورة الأولى حينما يذكر أنطونيوس — وهو مشرف على الموت — أيام صباه فيقول :

وأيام يدعونى الهــوى فأجيبه ... وينفخ فى البوق المناذى فانبرى
فتنت الغــوانى برهــة وفتننى ... ولكننى عن سـؤدد لم أقصر
فهمة قلبي فى شراب وصبوة ... وهمــة نفسى فى علاء ومفخر
أروس تواقفنا على كل غمرة ... وكل مجال ثائر النقع أكدر
وفى مهرجان الفاتحين وعرسهم ... وتحت لواء أو على عــود منبر

فنراه من خلال هذه الصورة ، شجاعا، ظافرا ، خطيبا يشبع عاطفته ولكن إلى الحدّ الذى لا يقف به فى سبيل المجد عن غاية .

ونرى الصورة الثانية حيث يفرّ أنطونيوس من معركة أكتيوم وفى ذلك يقول حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها ... للحب أجنــحة بهنّ يطــار

وإذ يخرج به الهوى من معركة لو استمرّ فيها لكتب له النصر الأخير، وذلك إذ يقول لكليوباترا عقب انتصاره المؤقت :

ومالت الشمس أوكادت فراجعنى ... شوق إليك عديم الدار سـوار
حتى رجعت ولو أنى طردتهم ... لبات أكتاف عندى وانقضى الثار

وإذ ينسى بلاده ووطنيته وجنسيته فى حب كليو باترا فتستطيع أن تقول :

... ... دعــوا روما ولا تجـروا لهـا ذكرا

فمـا أنطونيـو منهـا وإن كان ابنهـا البكرا

ولكن تحت أعـلامى يقـود البر والبـحرا

فيسأله قائد من قواده :

أحـق مارك أنطونيو س من روميـة تـبرا؟

فيجيبه :

أجل أتبـع مـولاتى ولا أعصى لهـا أمرا

وإذ تستطيع أن تقول :

أنطونيو ما أنت رومانى ألم تقل إنك لى جندى

فيجيبها :

أجل وزدت أننى مصرى وأننى تابعـك الـوفى

ما فى سوى رضاك لى مضى

وإذ يقول هو والخطاب لروما :

إن الذى بالأمس زنت جبينه بالغار عقك جهده وعصاك

وإذ يقول له قائد من قواده :

ألا إنـه ليـس له ماوراءه غرامك حى فيه والمجد ميت

وآخر :

فما المتدله السكير أهلا لتنصره السيوف ... ...

وثالث :

حياته في يديه أم في يدى كليوباترا

وإذ يناجى هو «إلهته» كليوباترا :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى وتركتنى نفسا بغير ملاك

وإذ يفقد مزية الجندى الباسل فى ساحة الوغى، تلك المزية التى أثبتها لنفسه حين سألته كليوباترا :

... ... أسالم أنت لا أسر ولا عار؟

فأجاب :

أسر ؟ وهمت كليوباترا ... ...

لو قلت قتل لكان القول أشبه بى كأس المنايا على الأبطال دوار

وتلك هى مزية الثبات التى يفقدها أنطونيوس بفراره من أكتيوم ثم فراره من المعركة البرية الثانية إذ يقول :

جللت نفسى بعار يبقى بقاء الزمان
لما حملت جوادى على الفرار ازدرانى
وضج منى سيفى وضج منى سنانى

وودت الأرض تحتى لو طهرت من عيانى
أنا الذى كان أمضى من الحديد جنانى
كان الملوك عبيدى فصرت عبد الحسان

على أن المؤلف ترك له ما سوى هذا من مزايا الجندية ، فجعله على لسان كليو باترا :

جيشا بمفرده فى الروع جرار

وجعله على لسان حبرا « إله الحرب » .

وجعله على لسان أوروس « إله الوغى » حيث يقول :

رأيتك والحرب تبلو الكماة فأشهد كنت إله الوغى
وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا
وكنت إذا الموت أفضى إليك تحديته فانثنى القهقرى

وجعله على لسان جندى رومانى :

... ... هيكلا عز فى الرجال ضريبا
... ... خير من هز رمحا أو نضا صارما ولاقى الحروبا

وجعله على لسان كليو باترا :

محور الأرض وميزان الشعوب

وجعله على لسان أكتافيوس « سيفا باترا لروما » :
ضمن أمثلة من هذا النوع تناثرت فى الرواية .

لكن هـذه المزايا الباقية لم تغن عنه شيئا إزاء ضعفه النفسى الذى أفاضه عليـه اندفاعه الأعمى فى هواه ، وجعـله من حيث طاعته لكليوباترا « كهمج الاسكندرية » .

ثم صـوّر المؤلف صورة أخرى لأنطونيوس من حيث هو رجل فنراه من خلال هذه الصورة : غفورا يتجلى غفرانه لكليوباترا مرة بعد أخرى ، ويبدو ذلك فى قولها له :

وكم حقدت ثم أصبحـ ـت كانـ لم تحقد

رحيم القلب ، بشوش الوجه :

وتبدو رحمته وبشاشته فى قول كليوباترا :

ليس العبوس سـنة لوجهك الطلق الندى
ولست من يغضب فى ليـل الشراب والدد
ولست للكأس على شاربهـا بالمفسـد
قلبك كنز الحب والـ ـر حمـة والتـودّد

أكتافيوس

يظهر أكتافيوس فى الرواية قائدا عظيما قويا ويبدو ذلك فى انتصاره وفى قوله «وما أنا إلا سيف رومة» وفى قول كليوباترا :

إن اسطعت على ما لك من بطش ومن فتك
وما حولك من خيل وما تحتك من فلك

وسياسيا :

ويبدو ذلك فى المعاهدة التى أراد أن يخدع بها كليوباترا ليتخذها شارة فى موكب انتصاره .

أنوبيس

يتمثل فى الرواية مصريا شديد الغيرة على مصريته .

ويتجلى ذلك إذ يقول :

إيزيس كيف أصلى على ابن يوليوس قيصر
أبوه عال ولكن فرعون أعلى وأكبر

وإذ يوحى إلى كليوباترا فكرة الانتحار عطفا عليها من حيث هى ملكة مصرية وحرصا على كرامة التاج المصرى ، ويتضح ذلك فى حواره حول أفاعيه وإذ يختم هذا الحوار قائلا :

يميناً بإيزيس أحملهن إليك ولو فى سلال الخضر
إذا بات فى خطر تاج مصر سبقت إليك بهنّ الخطر

وهو من هذه الناحية موزع بين عاطفتين :

(الأولى) عطفه على كليوباترا .

(الثانية) بغضه لروما .

ويتجلى هذا البغض فى قوله :

حابى أحيط القصر بالذئاب وبى من السخط عليهم ما بى

لكنه لم يكن ينسى فى هذا البغض أن آمال مصر معقودة على انتصار أنطونيوس . وقد رأينا أثر ذلك فى سياسة كليوباترا .



كَمُلَ طبع رواية "مصرع كليوباترا" بمطبعة دار الكتب المصرية
في يوم الخميس غرة جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ (٢ مايو سنة ١٩٤٦) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦٥/١٩٤٥/٧٠٠٠)

[تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر]

